اقرأ

أحمد الصاوي محمد

المغني المجنون

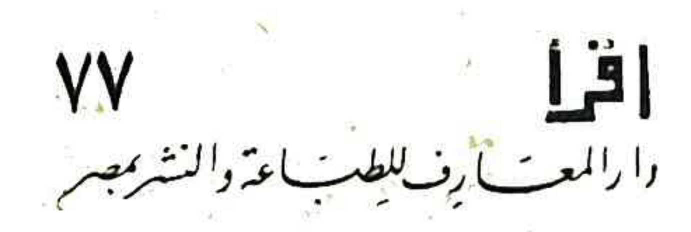
احمد الصاوى محمد

المغنى المجنون

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 03 / ذو القعدة / 1445 هـ
الموافق 10 / 05 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي





اقرأ ٧٧ — ابريل سنة ١٩٤٩





صورة له بريشته في دور « شمشون »

في رواية « شمشون ودليلة »



١ — قَسم على قبر

حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وكان أبوه فيه من الزاهدين ، فقد جاء ختام عشرين ولداً ، عند ما انتصف ليل ٢٧ فبراير ١٨٧٣ فى غرفة صغيرة حقيرة ، بينا أبوه مرسلينو كاروزو ، العامل المعدنى يحتسى خمراً تذهله عن مقدم ولد غير مرغوب فيه .. ومع ذلك كان عقله الباطن يتمنى لو يكون غلاماً ، على الرغم من أن له ثمانية عشر ولداً وبنتاً واحدة ، وكانت رائحة الفاقة ورائحة الخمر تخنقان المكان ، وكان ظهر الأم ، التى شاب شعرها ، قد تقوس من انحنائها طول يومها لغسل ثياب الناس بالأجر الزهيد .

ولم يكن أبواه يتصوران مبلغ ما ولد فى تلك الساعة فى ذلك الركن الكئيب ، من السعد والمجد ، فقد ولد غلاماً جذاباً ، صياحه فى مهده كرنين الأجراس الفضية ، كان فى صوته سحر وفى يده سحر آخر ، ولو لم يشب على الغناء لصار مصورا ، لقد انتصر سحر الصوت ، وراح العشاق يبعثون به تحت نوافذ الفتيات يبثوهن باسانه الشكوى والنجوى ... ثم يدسون فى جيبه دراهم معدودات يسارع بحملها إلى أمه فخوراً بأنه كسب

لها مالا ، وكذلك حرمت هى نفسها القوت الضرورى ليتعلم « أنريكو » صناعة الغناء ، فقد كانت الغسالة الفقيرة شديدة الثقة بمستقبل ولدها . ولم يستطع أبوه أن يحمله على اتخاذ حرفته والانكباب طوال يومه على أفران الصلب يذيب المعادن فى لفحة النيران .

كان أبوه لا يحب الموسيقى والموسيقيين فأراده أن يكون عاملا شريفاً يعيش بعرق الجبين ، ووقفت أمه إلى جانبه تزكيه وتعلمه الغناء الذى أحبه وخلق له ، وعند ما صار « كاروزو » أعظم المغنين فى العالم قاطبة كانت هـــذه الذكريات تملأ عينيه بالدموع ، فيتنهد ويقول :

— أجل ! كانت أمى تسير من أجلى حافية القدمين . . .

* * *

ولم يكد يبلغ الثامنة ، حتى كان مشهوراً بين أهالى نابولى . فقد كان ينشد يوم الأحد بصوته الشجى تراتيل الكنيسة ، وفى حفلة خيرية أقيمت فى الأوبرا ، ضمت كل الآباء وكل الأمهات ، انترع ذلك الغلام لنفسه صيحات الإعجاب والتصفيق من جميع الحاضرين ، على حين كانت فى آخر القاعة امرأة تكفكف دموعها من الفرح ، هى أمه ...

وتتابعت عليها أيام الهناءة ، وكانت كلما ازدادت فى ولدها

أملا ، ازدادت عملا ، وأزدادت كلالا حتى دفعها البرد ذات صباح فى فصل الخريف إلى أحضان الموت ، ولما أطبق عليها القبر فى مقبرة نابولى عاد زوجها مرسلينو كاروزو متثاقل الخطى كسير الفؤاد يتبعه أولاده ، والجيران والجارات ينظرون إليه بعطف وأسى ولم يتخلف عن الركب الحزين إلا « أنريكو » فهو لم يستطع أن يغادر قبر أمه ، ودعته أخته إلى العودة لأن الوقت متأخر ، وهو جاث لا يسمعها ، ينادى : « أماه ! .. أماه ! » . ثم راح يخاطب أمه الميتة بصوت منخفض :

— أقسم لك يا أماه أن أحقق أمانيك ، بأن أكون مغنياً عظيما ، فقد كنت تتمنين ذلك ، .. وقد رأيتك وسمعتك تبتهلين إلى العذراء من أجله وهأنذا أعدك به وأقسم لك ... ولشد ما آسف لأنك مضيت عنى قبل أن تريني مشهوراً .. فلماذا لم تنتظرى قليلا ؟ .. آه لو علمت كم كنت أريد أن أشترى حذاء جميلا لقدميك اللتين أضناهما المشى وهرأهما البرد ... أماه ! ... أماه !

ثم طفق أنريكو الصغير يغنى لجثمان أمه المسجى تحت الحجارة ، فى رقة وهدوء ، ويذيب فى غنائه حبات فؤاده .

* * *

ولم تلتئم سريعاً جراح قلبه ، فهو لا يستطيع النسيان ، ولا

يزال يهتف باسمها ويتخيل عزيز وجهها .

وقبل أن يجف تراب قبر الأم ، حلت محلها فى البيت زوجة جديدة ، ولم تكن امرأة شريرة ، بل عنيت بالأولاد فى كثير من الحنان ، وإن كان لا يعدل حنان الأم ، واتخذت جانب زوجها ضد « أنريكو » الصغير الحزين عند ما نهر ولده يوماً صائحاً :

– ستأتى معى إلى المصنع ، لأنى أريد عاملا شريفاً ، لا بهلواناً رقيعاً . . !

وجاء يوم حدث فيه للولد ما أذهله إذ أصبح ولا صوت له .. فحاول أن يغنى مرة ، ومرة ، وعشرين مرة .. ولكن ذهبت محاولاته عبثا .. لقد خفت صوته « السبرانو » الذى كان يجلجل فى أجواز الفضاء ، وخرست أجرا ں الفضة فلم يعد لها حتى ولا رنين النحاس ، وصارت تختلط فى حلقه نبرات خشنة صدئة ، ولا تكاد تخرج . ياللهول !. لقد شحب فى ساعة زمن ، وحاول أن يغنى مختبئا حتى لا يسمعه أحد ، وتزعزع كيانه ، وأحس بالعار يدركه ، والذل يشمله ، فتساءل ، أليس أبوه على حق ؟ ولم يعد أمامه غير المصنع ملجأ .. ولكن.. كيف تعدل السماء الرحيبة عن هبتها وتبدله بها نقمة العجز والشلل ؟ أتراه إذن سيخون عهده لأمه ويحنث بقسمه على قبرها؟

ولم يكن الفتى الصغير يعلم قبل اليوم بالتحول الذى يطرأ على الصوت عند البلوغ ، فبعد ليلة مسهدة قضاها فى التحسر والبكاء، اتجه فى الصباح إلى أبيه ، وقد ابيضت عيناه من الحزن ، وانكسر صوته من الاعتراف بالخيبة ، وقال :

— خذنى يا أبى إذا شئت لأعمل حيث تريد ...

٢ — عودة الأجراس

تحول الغلام النظيف إلى كتلة سوداء من الشحم والفحم والدخان . يا لها من يقظة موجعة ، أمام النار اللافحة ، بعد تراتيل الكنيسة وأغانى الأوبرا ! ماذا أصاب هذا الصوت .. ؟ لقد أخذ بيمينه فى غضبه الكظيم بمطرقة من حديد وصار يضرب ثم يضرب ، كأنما يريد أن يصنع من جديد « لصوته » المبحوح أجراساً من الفضة .. وتصاعدت على لسانه مرارة بلغت حلقه ، وطغى عليه حزن لا حد له ، لم يشعر به قط إلا أمام قبر أمه . إنه لا يتخيل أن يكون سعيداً إلا إذا غنى ، كان يريد أن يغرد مع الطير ليحيي مطلع الشمس ، وكيف لا يودع فى « المساء » الشفق الجميل الهارب وهو يصدح بالأغانى القديمة

الحزينة الحنون التى أحبها الحب كله ؟ !

ها هو ذا الآن وحده تائه فى ظلمات أفكاره السود ، مثل ظل يلتهمه ظل ، وكان يمشى يومئذ محنى الظهر كالعجوز ، عند ما أحس بيد على كتفه ، فارتجف كاروزو ونظر ، فإذا به أمام مغنى الأوبرا السنيور مسيانو ، يسأله ماذا صنع الله به ، وكيف اختفى عنه من زمن طويل ، فأخبره كاروزو ، فى خجل ، أنه لم يعد يغنى لأنه فقد الصوت ، فدهش المغنى الكبير وتساءل :

— كيف ؟ هذا قول هراء . إن الصوت فى مثل سنك يتكون ولا يتلاشى ، فتعال الآن معى وأنا الكفيل بأن أرد عليك صوتك المفقود .

وذهب معه وحاول كاروزو مرة ومرة ، فلم يخرج الغناء من بين شفتيه. وما زال المغنى به يأمره وينهره ، وخرجت النبرات خشنة جشاء ، وتصاعدت الزفرات من صدر الفتى وهو يحاول أن يحتجزها قائلا :

— لا .. لا .. لا أستطيع ..

وما زال المغنى به يشجعه ، ويمنيه ، ويحمله على الإيمان بنفسه والرجاء فى صوته ، حتى تمت المعجزة وسلس الصوت ، وانبسط ، واتسع وارتفع وانسجم .. لقد ولد الصوت من جديد ،

واستوى على عرش حنجرته وارتفع رأس الفتى فى زهو ، وأغمض عينيه ومد ذراعيه ، كما لو كان يريد أن يهدئ من ثورة نصره وفرحه ، وقال المغنى الكبير للمغنى الصغير :

— أتظن الآن أنك فقدت صوتك .. ؟ إنك يا بنى ستصبح مغنياً عظيما . ستصبح أعظم مغن فى العالم بأسره .

* * *

وصار يهرع كل يوم عقب عمله إلى الأستاذ « مسيانو » فيلقنه دروس الغناء ، وهو يزداد مع كل درس اعترافاً بجميل ذلك الرجل الذى رد عليه إيمانه وصوته معاً ، وأخذه معه عند ما حان رحيله عن نابولى إلى أستاذ الغناء المشهور « فرجين » فامتحن الغلام وجعله يغنى القطعة التى يختارها وهو يعزف على البيانو ثم أغلق البيانو ونظر إلى كاروزو وخلع نظارته فمسحها بمنديله الحريرى وقال له : إن صوتك يا ولدى أشبه بالريح التى تدخل من النافذة وهى تصفر .. !

يا ويلتاه .. أيكون صوته ريحاً تصفر وهو الذى زعمه كناراً يشدو ؟ لا .. ليس هذا ممكنا . وخرج هائما على وجهه يذرع الطرقات ساعات وساعات يجر خلالها ذيول عذابه وألمه . أينكص على عقبيه أم يمضى قدماً ، ثم لم يلبث أن عض على شفتيه واتخذ قراره ، وما شعر إلا وقد عاد إلى بيت الموسيقار

« فرجين .» على رغم الساعة المتأخرة وقد ضم قبضتيه كأنه يهدد القدر الذى يتوعده بالحرمان ثم انفرجت قبضتاه وسرى فى يديه الحنان ، وأحس كأن أصابعه تربت على التراب الندى الذى يجلل قبر أمه .

قال الأستاذ :

ــ ماذا تريد يا فتى ؟

ــ علمنى الغناء أتوسل إليك ... علمنى الغناء .

ــ لن أعلمك الغناء لأن صوتك لا يعجبنى .

ثم هز كتفيه وأضاف :

ــ وعلى أى حال إذا كنت وفير المال ...

ــ ليس عندى من المال كثير ولا قليل . (وذكر أجره الضئيل الذى يعطيه آخر الأسبوع لزوج أبيه) إنى يا سيدى الأستاذ لن أكلفك شيئا ، فاسمح لى أن أحضر فى الفصل مع تلاميذك ولا شئ غير ذلك . . .

وقام الأستاذ «يتمشى» فى الغرفة ، ويداه وراء ظهره ، ثم قال :

ــ ياللجنون الذى وضعوه فى رأسك ، أولى بك أن تدع هذه الأوهام ، ربما أصبحت يوماً مغنيا متواضعا فى بلدة صغيرة ولكن لاتطمع فى أكثر من ذلك .

وما زال الفتى يتوسل إليه ويتضرع حتى قبل أن يحضر الدروس .

ولما هم « كاروزو » بالانصراف استوقفه « فرجين » قائلا :

– إنى وإن كنت لا أثق بمستقبلك ... لكن من يدرى ؟

وخط سريعا بضعة أسطر ، وقال :

– وقع هذه الورقة فإذا وصلت إلى شىء ما فإن خمسة وعشرين فى المائة من دخلك تصير إلى جزاء تعليمك .

ووقع « كاروزو » الورقة وكان مستعداً فى تلك اللحظة أن يوقع أى شىء ولو كان عهداً مع الشيطان .

وداعب الأستاذ « فرجين » ذقنه ، وهو يبسم لنفسه بسمته المعنوية . وظل كاروزو يدرس عليه ستة أشهر ، فتحسن صوته وصقل وسار فى الطريق القويم ، وغير فرجين حكمه عليه وأفهمه أنه كان متسرعاً فى قسوته . « إن هذا الفتى سيصل حتما إلى شىء ما .. من يدرى ؟ » .

وكان عليه بعد ذلك أن يؤدى خدمته العسكرية مدى ثلاث سنوات ومعنى ذلك أن محنة جديدة حاقت به ، وعطلت دراسته ، وكادت تقضى قضاء مبرماً على آماله .

ودهش قائد الفرقة من صوت ذلك الجندى ، وكان من حسن الطالع عليما بصناعة الغناء محباً له ، فأشفق أن تضيع هذه

الموهبة الخارقة وذهب إلى رئيسه طالبا تسريح ذلك الفتى وقال : إن من العار أن يحبس فى ثكنة مثل هذا الفنان ! !

ومر به عام ووعدوه بأن يعفوه من العامين الباقيين إذا حل محله أخ له . وكان أخوه الأصغر « جيوفانى » قد خطب فتاة يحبها ، وجعل يدخر المال للزواج منها ، ولكنه أذعن عن طيب خاطر ، من أجل أخيه حتى يتم صناعة الغناء ، فقد كان يعلم رجاء أمه فى أخيه أن يصبح يوما ما مغنيا شهيراً ، وماذا عليه لو انتظر وانتظرت خطيبته عامين فما يزال عمرهما سبعة عشر عاماً ؟

وكانت التضحية نبيلة عظيمة ، وقد عادت فعلا بالخير على أهلها ، فقد كان المجد يمهد طريقه لهذا الاسم ، وكان المال ينتظره .

٣ — الخمـــر

دهش أستاذه « فرجين » إذ رآه يعود قبل موعده بعامين كاملين ، ورأى أن الخدمة العسكرية قد أحالته فتى قوياً ، ورأى أن الأوان قد آن لبروزه على المسرح ، فقدمه إلى السنيور « راسبورو » مدير التياترو الأول فى نابولى ولم يكن فى حاجة إليه ،

ولكنه قبل أن يسمعه على مضض ، وما إن رفع عقيرته بالغناء ، حتى بهر الرجل إذ رأى قلباً يذوب فى صوت ساحر عذب ، وألحقه بفرقته لساعته . وجاءت الليلة الموعودة لظهوره ، وغص مسرح « المركندت » كأن نابولى كلها قد ضرب بعضها لبعض موعداً هناك ، وتلألأت السيدات الأنيقات فى المقصورات ، وتألقت الحلى والجواهر ، وكأن أكتاف الجميلات المتجردة مصنوعة من العاج . وكانوا سيمثلون لأول مرة أوبرا جديدة لملحن شاب اسمها « الصديق فرنسيسكو » وعزفت الموسيقى لحن الافتتاح ، ثم ظهر على المسرح فجأة شاب نحيل زائغ البصر ، بادى القلق ، ووقف أمام مخبأة (كوشة) الملقن كأنه سمر فى مكانه ، وابتسم له رئيس الأوركسترا مشجعا ورفع عصاه إيذاناً ببدء العزف ، وبدأ « كاروزو » يغنى غناء لا هو بالجيد ولا هو بالردىء ، ولم يكن فى الفصول التالية أسعد حظاً ... جهد قوى وصوت ضعيف وتصفيق ضئيل . ولما نزل الستار الأخير ، قال الناقد المسرحى بأكبر جريدة فى نابولى لمدير المسرح ساخراً : « أهنئك أيها العزيز على اكتشافك الجديد . » وكان معنى ذلك أنه سيقضى على كاروزو بجرة قلم . وراح المدير ينهر المغنى الصغير : « ماذا أصاب حلقك ؟ ياللكارثة ... أما من أغنية واحدة جديرة بشهرة مسرحى ؟ قسما بقرون الشيطان ... » .

* * *

وبعد خيبة المغنى الناشئ لم يعد المدير يطيق سماع اسمه وألحقه بالأدوار الصغرى ، وكان مع ذلك يؤمن بأن يوما عظيما ينتظر هذا الفتى .

أما الفتى فقد كان يبحث عن دواء لحزنه ، وإخفاقه ، فلم يجد أسهل من الخمر ، وظن أن نبيذ صقلية سيشفيه من دائه ، وجعل يتردد على الحان ويفكر فى أبيه ، ويتساءل هل أورثه رذيلة السكر ، فلا يناله منه غير هذا الميراث الأليم؟!... وصارت حانة الأب «فنسنزو» ملجأه الوحيد، وكان أحياناً إذا لعبت الخمر برأسه حن إلى الغناء فرفع صوته بالأغانى الشعبية تزيده نشوة على نشوة وتدوى من حوله صيحات السكارى وضحكاتهم وهتافهم لذاك الذى أطلقوا عليه اسم « المغنى المجنون » .

وتسللت النقود من جيبه إلى صندوق الحانة . وصار يعود إلى بيته مع الفجر ويستيقظ من نومه عند الظهر .

وتنبه ضمير السنيور « راسبورو » إلى أنه ظلم ذلك الفتى الناشىء الموهوب فمن سوء طالعه أنه بدأ برواية رديئة الألحان استوعبت صوته وضيعت عليه هباته فبعث فى طلبه . فجاءوا يطلبونه فى حانة « الأب فنسنزو » . وعز عليه أن يترك الكاس والطاس ليواجه من جديد قدره الذى ظن أنه يخفى له شراً ، وأن

مدير المسرح إنما يريد طرده ، وتشبث به رفاق الحان ، حتى اضطر رسول « راسبورو » أن يسوقه بالقوة أو يكاد . وهناك نظر إليه المدير باحتقار قائلا :

ــ أما زلت سكران ؟ . . أفلا تخجل من ذلك ، أنت الفنان ..

ــ أنا فنان ؟ ... أنا المغنى المتعطل ؟..

ــ سنضع لذلك حداً ، فإن زميلك « اودو » مريض ، وسنفتتح الموسم الجديد بأوبرا « لوتشيا لامرمورى » ففكرت فى أن تحل محله . لكن كيف أثق برجل مخمور مثلك وأكون عاقلا؟.. أخشى أن أكون مضطراً لانتظار شفاء « اودو » ..

ففعلت هذه الكلمات الأخيرة فى كاروزو فعل السحر . فهو يمقت ذلك الزميل الذى كان يحتقره ويغار منه . وتبخرت نشوة النبيذ فى لحظة ، وحل محلها صفاء فى النفس ونقاء فى الصوت. وأقسم لمديره إن وثق به ، أنه سيكون عند ثقته ، أو يطرد إلى إلى عرض الطريق .

أجل إنه سيمثل الدور الأول ، وينتصر أخيراً على الغيرة والخيبة . ومن تلك الساعة جعل المترددون على حانة «الأب فنسنزو» ينتظرون عبثاً « المغنى المجنون » ولايجدون تفسيراً لغيابه إلا الإملاق ، ويأسفون على صحبته وكرمه . وكان هو فى تلك

الأثناء يتمرن بحماسة على دوره . وكانت التجارب تنبئ بفوز مبين . حتى جاء يوم التمثيل ، وكانت جميع الأماكن مؤجرة . فإن محبوبة أهل نابلى « ماريا بيمونتى » الجميلة ستغنى دور «لوتشيا» الذى تتفوق فيه . وراح كاروزو يسبح فى بحر من الفرح . والسنيور «راسبورو» يهنئ النفس بأن شصه « صنارته » قد عاد فاصطاد هذا الفتى من مهواته ، وأنبأه بأن فوزه سيكون عظيما . فتخيل التصفيق الحاد وصيحات الإعجاب وطلبات التكرار والإعادة .. أجل .. هذا هو المجد ..

وفى طريقه إلى داره يستجم قبل السهرة مر بحانة «الأب فنسنزو» وكان صاحبها واقفاً بالباب ، فما إن رآه حتى نزع « غليونه » بلهفة من فمه وصاح :

— وى ! أيها السيد المغنى ... يا عزيزنا كاروزو أين أنت ؟ هل كنت مريضا ؟ ... أنا وأصحابك فى قلق عليك .

— لم تعد لدى ياعم فنسنزو ساعات طويلة أقضيها عندك ..

ثم استخفه زهو ساذج فعرض على الخمار آيات حظه الجديد السعيد :

— سأغنى هذا المساء الدور الأول فى أوبرا « لوتشيا » .. فما رأى الأب الطيب فى هذا الشرف ؟ ...

— رأيى ؟ .. رأيى أن نشرب نخب هذا ..

فابتسم كاروزو مستسلما قائلا : إن كأساً صغيرة من نبيذه المعتق لا ضير فيها ... ودخل الحان العبق بالدخان واثقاً بنفسه كل الثقة . مثله فى هذا كلاعب الورق الذى لا تحدثه النفس إلا بالربح ، ناسياً أن هناك الغنم والغرم ... وتعالت صيحات السكارى :

— أفيفا ... سنيور كاروزو ... أفيفا .. أأنت عائد من الجحيم ؟.. إن الإنسان لا يتخلى عن أصحابه هكذا فى المصائب .

وتسابقت الصيحات وتقارعت الكؤوس . وأحيط كاروزو بهؤلاء المخمورين كما لو كان محصوراً فى كمين . هذا يعانقه وذاك يربت على كتفه ، وهذا يصافحه وذاك يشده إليه ليستأثر به ... وكاروزو بين هذا كله مزهو بهذا الاحتفال مستسلم... يزيد فى زهوه أن يبدو لأصحابه فى عهده الجديد الذى بزغ فيه نجمه . وظن أن احتفالهم صادر عن إخلاص فى حين أنه ليس صادراً إلا عن نشوة الخمر والرغبة فى أن يحتسوا منها على حسابه المزيد ...

وضعف الفتى قائلا فى نفسه : إن هذا الرحيق من نعم الآلهة. وأفرغ زجاجة فى جوفه فسرت ناراً حامية فى عروقه . لقد كان هذا النبيذ الغنى الكريم كالدم الحار الزكى . وغامت عيناه فى الفضاء ورأى من خلال أبخرة الخمر أن الأضواء ستسلط عليه

هذه الليلة ، وأن القاعة ستهتف له ، فازداد فرحاً ومضى يشرب ثم يشرب . غير أن ضميره لم يلبث أن تنبه فجأة فاندفع إلى خارج الحان قبل أن يمسك رفاقه بتلابيبه ولفحه الهواء المنعش ، وكانت النجوم قد بزغت فى سماء نابولى الصافية ودهش من تقدم الساعة ، وأراد أن يجرى فخانته ساقاه كما لو كانتا من خزف ، أو كما لو كان قدماه قد ربطتا بأغلال من تلك الزجاجات التى تملأ الحان . وخارت قواه . ونظر إلى ساعته وقال : « أمامى ساعتان أرقد فيهما قليلا لأستريح » وبعد جهد جهيد وصل إلى بيته وانهار على فراشه مستغرقاً فى نوم عميق .

* * *

— بربك يا سنيور كاروزو انهض فقد كاد التمثيل يبدأ والدار غاصة بالناس ولم يبق على رفع الستار سوى عشر دقائق . استيقظ . انهض . يا لله ماذا أصابك ؟ . . .

إنه أحد بوابى التياترو جاء يدعوه وطفق يهزه من كتفيه وكاروزو لا يكاد يعرفه . ونظر إليه من خلال جفونه المغمضة ورأسه مثقل وجسده منحل ، وتبعه هكذا جاهدا فى أن يتذكر ما جرى له ، ولم يتذكر ما كان منه من قبل ، كما لم يتصور كيف وصل إلى مقصورته ، وتزين ولبس ثياب التمثيل .

ووقف خلال الفصل الأول فى وسط الأضواء التى تبهر

البصر مواجها ألوف الوجوه التى تحدق فيه ، وتبين رفاقه أنه غير مالك تمام وعيه غير أن الفضيحة الكبرى وقعت فى آخر الفصل الثانى عندما كان عليه أن يصدح بالغناء قائلا : « إيه يا آخر ساعات بلادى . . » وصاح : « إيه يا آخر زهور بلادى » ولم يسمع صوت الملقن مع أن القاعة كلها سمعته فانفجرت ضحكة رنانة من ألوف الأفواه . فقد أدرك المتفرجون أن المغنى فى حالة غير طبيعية وفهموا أنه مخمور فلم يشفقوا عليه وتعالت الأصوات من كل جانب : « هذه فضيحة » « إنه سكران » « اطردوه » ... « ردوا النقود » . .

وتجاوبت أصداء هذه الفتنة من مقاعد الأوركسترا إلى أعلى التياترو. وكان صفير وكان صراخ وقيام وقعود . . وانهار كاروزو على نفسه وترك المسرح شاحبا كالميت وجر نفسه جرا إلى مقصورته مجللا بالعار والندم . وكان خصيمه المغنى أودو — وهو فى دور النقاهة — يشهد سقوط منافسه الشاب فاستمتع بهذه الخيبة لا سيما أن مدير التياترو هرع إليه ليلبس ويحل محل كاروزو الشقى الذى هرب من دار التمثيل كما لو كان لصاً ضبط متلبساً .. إن الألم والندم يمزقانه شر ممزق ، وأحس بنفسه وحيداً هزيلا ، كسيراً ، مغلوباً على أمره . لقد أتاح له القدر فرصة نادرة فأضاعها بجنون « هذا المغنى المجنون » .

٤ — عبث الشباب

لقد ضاع كل أمل . ستوصد أبواب مسارح إيطاليا كلها فى وجهه ، وهذا حكم لا استئناف له . إن مكانه اليوم فى الحان بين السكارى والمتشردين أصحابه وأشباهه . هذا هو مصيره .

وفى اليوم التالى تلقى خطابا من تياترو « ميركندت » بالاستغناء عنه مرفقاً بخمسين ليرة . لقد صار كاروزو إلى عرض الطريق . هو ، رجاء الغناء المسرحى ومعقد آمال الأوبرا الإيطالية ، هو الذى يعد نفسه موهوباً من الله قد حقت عليه الكلمة ونبذ بالعراء وهو كظيم .

ولم يلبث أن رأى اسم خصمه أودو يحل محله فى الإعلانات الكبيرة ، معلنة عن ذات الرواية فقال لنفسه : « فلأذهب لأسمع أودو هذا » واشترى تذكرة لمحل فى الطابق الثانى وبه استعداد لتلقى الدرس . وقد كان أودو مستعداً فعلا لأن يعطى درساً لكاروزو ، ذاك الذى تسلل إلى الفرقة ودخلها دخول لص وخرج منها أيضاً متسللا خروج لص .

وغنى أودو فأحسن الغناء ولعل رغبته فى التفوق على خصمه



كاروزو فى الثانية والعشرين فى دور « كافلريا روستيكانا »

قد زادت فى حسن أدائه، وأحس كاروزو بالتضاؤل والتخاذل فهو يشهد فعلا انتصار منافسه .

وفى هذه اللحظة صاح صوت سكير جهورى خشن :

— أنا أفضل زهرة بلادى ! — (وأنا أيضاً) أفيفا كاروزو ..

وتردد بهذا مائة صوت وساد القاعة الضجيج وتوقف أودو عن الغناء وراح المتظاهرون يتصايحون : « نريد زهرة بلادى . نريد كاروزو » ترى هل حمل كاروزو معه إلى التياترو عصبة حان « الأب فنسنزو » .. ودبر هذه المظاهرة الصاخبة . ؟. أو هم الذين صنعوا ذلك وفاء لجميله ؟ . . من يدرى ؟ . . لقد صارت الأيدى تصفق والأقدام تدق على الأرض والأفواه تطلق الصفير ولم يعد المغنى يعرف ماذا يفعل . وانتظر مع ذلك انتهاء المظاهرة وخاب فأله، فلم يلبث أن تلقى فى وجهه فاكهة ناضجة أو فاسدة ، انفجرت حوله ، وتوالت قذائف الطماطم والبطاطس والبصل حتى غص بها المسرح ، وتوارى المغنى تاركاً هذا الحقل الذى ظهر على خشبة المسرح بسرعة خارقة . وكان مدير المسرح يتميز فى الداخل من الغيظ مقسما بمغلظ الأيمان ألا يضع كاروزو قدميه فى مسرحه أبداً . . بيد أن العاصفة فى القاعة كانت لا تزال ثائرة ، ولا يعرف شعب نابولى الخضوع أو الخنوع وهو المشهور بالتعصب وحب العراك وحدة المزاج . وبدأ المتفرجون يحطمون

الكراسى ويكسرون «الشمعدانات» وأرجلهم ما زالت تدب على الخشب فى جميع الطبقات . وتبينوا كاروزو بين المتفرجين فهرعوا إليه يسوقونه ليرتدى ثياب التمثيل ، والسنيور راسبورو المدير فيه من الزاهدين ، يؤثر أن يعيد للناس نقودهم على أن يتيح فرصة أخرى لهذا السكير .

لكن كان مسرحه مهدداً بألا يبقى فيه حجر على حجر فأذعن لحكم الجمهور وانتصر العقل التجارى قائلا لنفسه : « ما دام الجمهور يريد سكيراً يبدل كلاما فى الغناء بكلام فليكن لـــه ما يريد » .

ولم يكد كاروزو يصدق عينيه . واندفع يغنى كأن روحاً علوياً قد حل فيه . غنى وأبدع وتفوق وخلب الجماهير الذاهلة بسحر صوته . وانسدل الستار عليه . وألف فم يهتف بحياته . « أفيفا كاروزو » . . .

لقد ثمل مرة أخرى ولكن .... بخمر النصر .

* * *

وصار بين عشية وضحاها مغنى نابولى المحبوب . وأحاط به المعجبون والمعجبات ولم يكن نجاحه المحلى ليرضى طموحه. كان يؤمل مجداً أعظم . يطمع فى الشهرة العالمية .

وكان كل ليلة يمر وهو خارج بين صفين من المعجبين

يحييهم ويتلمس طريقه بينهم إلى المركبة التى تنتظره وإذا به تستوقفه نظرة من عينين رماديتين نجلاوين مشتعلتين بحرارة الحنان . وصوت رقيق يتهدج تأثراً يقول : « يا مايسترو. ما كان أجمل غناءك الليلة ! » فتوقف . ورأى أمامه فتاة لها خصر نحيل وشعر فاحم طويل ووجه عذرى ناصع البياض وجفنان يلتقيان فى النظر إليه . ورقة فاتنة تتضوع منها كالزهر وهى تزداد اضطرابا :

— إنك ترانى خجلة ولكنى لم أستطع إلا أن أجىء فأقول لك إن صوتك قد حملنى وحلق بى . .

فسألها أن تصعد العربة ليتحدث إليها . فترددت قائلة إن عمها سيغضب إذا عرف . وما ينبغى لها . لكن الفتاة الجميلة كانت تتكلم وقد جلست إلى جوار كاروزو متمتمة : « وى ! ما عساك تظن بى وقد ركبت هكذا فى عربتك ؟ » .

وكان كاروزو أشد منها اضطرابا . لقد رقص فى قلبه لحن جديد مؤثر حنون . . . وحوذية نابولى يعرفون تلك الطرق الملتوية التى تروق العاشقين ، وهم علماء نفسيون يكتمون الأسرار ، ويتركون خيولهم تسير خطوة خطوة لا يزعجونها بصوت ولا سوط . وفى ذلك المساء استغرق الطريق ساعة وهو يقطع عادة فى عشر دقائق دون أن يشكو إنسان وكذلك عرف كاروزو أن المعجبة

به تدعى « جوزفين » وأنها فى السابعة عشرة ، يتيمة تعيش مع عمها وولى أمرها ، وهو الامبرزاريو دون بيبوراسى وكانت الفتاة بالطبع — كما هو مفهوم — موسيقية تقضى السهرات الطويلة جالسة إلى البيانو تغنى وتعزف . ولم تكن عاشقة . كيف يمكن لإنسان قبله أن يكون جديراً بتحريك مشاعر فتاة أحلامه ؟ . . ولم تكن على نسق أولئك الفتيات اللواتى يدسسن الرسائل أو يتلقينها ، ويتسللن سراً إلى اللقيا تحت أعين مربياتهن . إن أحداً من الرجال لم يعكر قبل الآن صفو هذا القلب النقى . ولم يكد كاروزو يصدق هذا الهناء ولم يكن قد مضى على معرفته بها ربع الساعة وها هو ذا قلبه يخفق فأدرك لأول مرة أن فى الدنيا نشوة غير نشوة الخمر ونشوة المجد .

هو أيضاً لم يحب قبلها . وما أكثر النساء اللواتى وجدهن فى طريقه . غراميات عابرة ، ونسيان سريع . أما الآن فحياة جديدة ومجد جديد وحب جديد . إنه لم يحمل للمرأة قبل الآن إلا الاشتهاء ، ولم يكد يعرف إلا الراقصات والمغنيات الطائشات . . . لكن هذه الفتاة . . لكن هذه الطفلة . . يالأحلام الحب التى توحيها بمجرد نظرتها ، بمجرد لفتتها . إنها مؤمنة بالحب مثله . ودعته إلى زيارة عمها ووعدها بأن يزورها فى اليوم التالى .

« جوزفين ! أنت كل حياتي . إني أشكر السماء والملائكة والآلهه التي جمعتنا والآن سأغني لك صوت حبنا . . »

وسمعته وفي عينيها الدموع ، ما أسعدها ، إنها لا تجد تعبيراً عن هنائها إلا في شفتيها . فتركت له شفتيها .

* * *

ورحب به عمها وكان يقدر صفاته النادرة ويتمنى لو أن ربيبته صارت لكاروزو زوجة .

وطفق يقنعه بأن يترك نابولي إلى مدينة سالرنو حيث له بيت قديم في أحضان الشجر . وهناك يشرق فجر جديد لمستقبل جديد . وكان يرى ذلك الحب من حوله ويفتح عينا ويغمض عينا . ودفع الحب كاروزو إلى قبول الرحيل ، وإن كان قد عز عليه مغادرة نابولي مسرح فوزه الأول ، غير أنه بعد ذلك لم يندم ، فقد لقي في سالرنو نجاحاً عظيما وزاد الحب صوته صقلا وعذوبة . ووجد دون بيبو بيته القديم العزيز الذي شهد أيضاً غرام كاروزو وجوزفين . والعم يمني نفسه بزواجه فقد وضع يديه على كنز في هذا المغني الفتي ، ووضعت ربيبته يديها على كنز آخر من الحب .

وأعلنت خطبتهما ومع ذلك ففي حفلة الخطبة سرى فيه عذاب غريب وقلق خفي كما لو كان قد أتى أمراً إدّاً لا سبيل إلى

إصلاحه . حقاً إن أفراح البيت وهناءة الزوجية لهما جاذبيتهما ، لكن المقام الطويل والثبات فى الأرض لهما عيوبهما ، ثم ألا يصبح سيد نفسه وحده حراً طليقاً . هذا كله أين هو ؟ . وكيف يفرط فيه ؟ ونظر من حوله يتأمل تلك الحفلة فى هذا البيت الهادئ القديم بين أعيان مدينه سالرنو . وتساءل ما الذى يربطه بهؤلاء الناس ذوى الآفاق المحدودة أو المطامع الصغيرة الوضيعة ؟ . . .

ثم عاد فطرد أفكاره السود وجذب إليه جوزفين الناصعة الوردية من خصرها خصر النحلة وتمنى الهناء . .

وطلع الفجر وانفض سامر الحفل وأطفئت الأنوار . وعاد كاروزو وحده من الطرق الحجرية الضيقة إلى بيته وهواء الصبح يضرب جبينه الملتهب ، وتذكر وهو مار بالتياترو أنه نسى فى مقصورته مسودة دوره فدخل وكان على المسرح بعض الرفاق جاءوا مبكرين ليتمرنوا على مسرحية صعبة وفتح فجأة إلى يساره باب تبين منه خيال امرأة كأنه سيف يشق حجب الظلام ، فوقف .

ما الذى جذبه ؟ وأى شىء خارق للعادة فى حركة هذه المرأة ؟ وأراد أن يمضى فى طريقه وأدار رأسه حتى لا يرى هذا الجسد نصف المتجرد الذى يبدو كأنه أنموذج فذ للجمال الحى . ورأت الراقصة الفاتنة كاروزو فهتفت به فرحة :

ـ آه . أستاذى . أهذا أنت ؟ . . .

فقد طالما تمنت أن تعرف المغنى العظيم وحيل بينها وبينه فى ظروف مختلفــة ، وها هى ذى الفرصة سنحت لها . فسألها كاروزو عن اسمها فطفر قلب الفتاة الجميلة من الفرح . ما أسعدها بأن يلحظها كاروزو العظيم . فانحنت أمامه انحناءة رشيقة وقدمت إليه نفسها . . « جيانينا . . » .

كانت الفتاة آية . أجمل عينين فى أجمل محيا . فى أرشق جسد . وشعرها الأحمر ، نحاس وذهب ، يطير خلف رأسها كشعلة من حرير . ونظر إليها كاروزو مضطرباً وأصابه دوار استل منه إرادته . لقد فعل السحر فعله ولن تنحل فى لحظة طلاسمه . وخطرت له لحظة خطيبته والحفلة الساهرة والزواج القريب . . . بيد أن هذه الرؤيا ما لبثت أن غرقت فى ضباب غريب عميت منه عيناه ، فاقترب من « جيانينا » كما لو كان مريضاً بذلك المرض الذى يسير به النائم دون أن يدرى أنه يسير . . وارتفع صوت مجهول فيه يهمس باسمها « جيانينا » وأخذها بين ذراعيه فضمها إليه وقبل شفتيها بقسوة ووحشية وأمرها قائلا : « اتبعينى »

فهمست : « إلى أين ؟ . . . »

« إلى أى مكان ... ربما ستجيئين معى إلى آخر الدنيا . . أتجيئين ؟ . . »

وشهد كوخ الصياد ذو السقف المائل المتهدم عاطفة عميقة عنيفة كالبحر الهائج وكان الكوخ يطل على البحر الأبيض المتوسط وزرقة السماء وزرقة الماء تلتقيان فى الأفق الذى لا آخر له فى صمت وانسجام . .

وهكذا عاش كاروزو وجيانينا فى « بالرمو » سبعة أيام لا يعرف أحد أين هو . . يشتعل غراما فى تلك الوحدة التامة ، ونسى الدنيا ، ولم يعد يذكر منها شيئاً ولا أحدا حتى ولا نفسه . وكان يتلقى سراً رسائل تقطع الفؤاد عما أصاب جوزفين منذ هجرها . وقد ذبلت كما تذبل الزهرة التى لا ترى النور . وكان كاروزو يخمد صوت ضميره وهو يخفى وجهه فى صدر جيانينا الدافئ . ونسى كاروزو ، أو كاد ، أنه يعرف الغناء .

وفى ذات صباح ، بعد ليلة من تلك الليالى التى لا تنتهى من الهوى والضنى ، تلقى من ميلانو خطاباً من السنيور ريكوردى الناشر الأول فى مدينة إيطاليا الأولى . ففضه وقرأ « السنيور ريكوردى يدعو السنيور كاروزو لمقابلته سريعاً فى ميلانو » فلم يتردد وأذهله الفرح فبادر يعد حقيبته . فسألته الراقصة :

— إلى أين ؟ . .

ــ لا بد من سفرى . . اقرئى . .

ــ أسرعان ما تتركنى هكذا ؟ . .

ــ اسمعى يا جيانينا . فى هذا الخطاب مستقبلى كله ولا بد لى من السفر . . . ثقى أنى سأعود .

وصاحت جيانينا بصوت حقود أضاع حسها وقد اشتعلت عيناها بلهب شيطانى :

ــ إنى أعرف قيمة هذه الوعود ، وإنك طحت برأسى بأقوال جميلة ووعود خلابة . والآن وقد زهدت فىّ فإنك تريد الخلاص منى . . لكن لن يصنع هذا بى أنا . .

وتألم كاروزو من فظاظة صاحبته ورد عليها بلا رحمة :

ــ أفلا تفهمين إذن أنى مكلف برسالة هى رسالة الفن والمسرح . فهل ينبغى لى من أجلك أن أدفن هنا فى كوخ صياد ؟ إننى لن أضحى بفنى ولا بصوتى من أجل العاطفة المجنونة الطائشة التى تمنحيننى إياها . . سأغنى يا جيانينـــا للعـــالم بأسره .

٥ — نحو المجد

فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٧ كانت ستمثل للمرة الأولى فى ليفرنو (الحياة البوهيمية) وقد اختار ملحنها العظيم « بوتشينى » المغنى الفتى كاروزو لتمثيل البطل رودلف وكان ذلك نصراً عظيما ، وكانت ستؤدى أمامه دور حبيبته ميمى المغنية الأولى آدا أجيتشى. ولم ير كاروزو فيها بعد تعرفه بها إلا رفيقة المهنة وشريكة العمل لا أكثر ولا أقل . غير أن بوتشينى عند ما حضر التجربة الأخيرة للرواية انزعج من صوت كاروزو وقفز إلى المسرح سائلا إياه عما أصابه . وعندئذ همست آدا فى أذن كاروزو قائـــلة :

— أيها الصديق العزيز تعال عندى بعد ظهر اليوم لنرى معا ما يمكن عمله فإن صوتك جميل جداً ولكنك لا تعرف الغناء . وسأعلمك إن شئت كيف تستخدم صوتك .

فجرحته هذه الكلمات وكره من المغنية المشهورة مظهر الحماية أو الرعاية الذى تبسطه عليه ، بيد أنه لم يكن بد مما ليس منه بد فقبل العرض وكانت آدا له خير ناصح وكان لها خير تلميذ .

وصار يؤم بيتها بعد ظهر كل يوم لا بحكم المهنة ولكن مندفعاً بقوة لا تقاوم . لم يعد يكفيه أن يراها فى التجارب أو دروس الغناء التى تعطيها ، إنه يريدها كلها له ، لقد تطورت عواطفه فقد تبعت رغبة التعلم فرحة التقرب منها والإعجاب بها . ثم جاء الحب ، حب لا مثيل له ، حب يختلف عن ذاك الذى شعر به نحو جوزفين خطيبته السابقة أو نحو جيانينا الراقصة .

هل كانت آدا جميلة ؟ . إنها ليست هيفاء القوام بل قصيرة القامة ، ووجهها عادى غير أن لها شعراً فاتناً ولها عينان لا نظير لهما كما لو كانتا ذاتى قوة سحرية فوق الطبيعة نفسها . وكان كاروزو يتأمل عينيها فى صمت ، ساعات طوالا ، شاعراً بفرح غير محدود كذلك الحاج فى الصحراء الذى يشرب من ماء طهور .

وكان تأثير آدا فيه عظيما جداً . وكان سلطانها عليه يوجهه ويهديه ، وكان على خشبة المسرح يهتدى بهديها ويستوحى عينيها فيرتفع عن الأرض ويسمو غناؤه ويتدعم صيته .

وفى ذات ليلة أمسك بصورة أمه وسألها — هى التى إلى جوار الله — أن تبسط عليه حمايتها وأن تجعله يغنى كما لو لم يسبق له الغناء أبدا حتى يصبح مغنياً عظيما ، وحتى ترضى به آدا زوجاً .

قالت له آدا وهو يدلف إلى المسرح : «تشجع . إنى أومن بك .» فدخل ثابتاً على ضوء ابتسامتها الخلابة وأحس أن ألوف العيون تحدق فيه . إنه لم يعد بعد كاروزو . لقد صار « رودلف» الشاعر الرومانتيكى فى قصة « البوهيمية » فاستند إلى النافذة مشرفاً على سقوف باريس ينظر إلى سقوط الثلج كالعهن المنفوش ، ثم غنى غناء خفقت له جميع القلوب ولم تشهد أوبرا ليفورن ولم تسمع قط مثله . وتفجر فى القاعة رعد من التصفيق . وتجاوبت باسم كاروزو ألوف الأفواه .. وهناك كان بوتشينى يقف كتمثال حى للنصر لا يكاد من نشوته يرد تحية الجماهير التى تهتف له بدورها .

وفى تلك الليلة أعاد الفصل الثالث مرتين . وهو ما لم يسبق حدوثه ، وفى تلك الليلة التذكارية ماتت العاشقة المسكينة ميمى مرتين .

ولما خرج كاروزو إلى مقصورته لاهث الأنفاس مما بذله من جهد ، حاصرته فرقة من متعهدى الغناء فى جميع الأنحاء ، وعرضت عليه أرقاماً جنونية ، فدار رأسه على دواره وكانت تتردد من حوله أسماء باريس ، لندن ، نيويورك ، برلين ، موسكو .

وقبل أن يقضى بقبول أو رفض خرج لتلتقى عيناه بعينى آدا ،

فأجابت عيناها النداء ، فعرف أنها قد صارت له .

لقد فتح له طريق المجد جنباً إلى جنب طريق الحب .

* * *

فى كل مكان يتساءل الناس : ما هذا الصوت ؟ من هذا الرجل ؟ من « المتروبوليتان » فى نيويورك . إلى « الاسكالا » فى ميلانو . ومن تياترو سان كارلو فى نابولى إلى روما ، ومن مونت كارلو إلى سان بطرسبرج ومن ريودى جانيرو إلى بونس ايرس . نصر فوق نصر ، ومجد فوق مجد ، ومال فوق مال .

وحدث فى عام ١٩٠٢ على مسرح التياترو الكبير فى سان بطرسبرج أن أحس بالقشعريرة فى الجو الروسى المثلج وخيل إليه أن الجمهور يحدجه بقسوة وبرود وأحس بذلك التحدى يجمد أطرافه ويوقف صوته فى حلقه . أتراه سيضعف ويتخاذل ويكون دون ما بلغه من الشهرة ؟ فدار بعينيه السوداوين فى القاعة الهائلة وتأمل فى تلك العيون السلافية الصافية الحديدة كالفولاذ فرأى بينها عينين حزينتين فيهما من الكآبة جاذبية مثيرة . من ذا الذى بعث إليه بهذه النظرات الحنون ؟ لم يكن يدرى . . لكن خيل إليه أن ثمة وفاقاً روحياً بينه وبين من كان يجهل ، وأنه إذا غنى فإنه لا يغنى لنفسه فقط ولا للموسيقى فقط . . إن هناك من يسمعه .

وفى ذلك المساء غنى كاروزو غناء علوياً . وبعد التمثيل التقى من جديد بالعينين الصامتتين الحزينتين فى مقصورة قيصر روسيا الذى شكره شكراً جزيلا ، ولم يعرف كاروزو كيف يسلم وكيف ينحنى وكيف يتكلم وكيف ينصرف . وأهداه القيصر نقولا علبة من القطيفة الزرقاء تحوى زوجاً من أزرار القمصان مصنوعاً من الياقوت الكريم يضىء كأنه نار تبهر الأبصار. وكان كاروزو فيما بعد ذلك من الأيام يروى لأصحابه أنه لقى عشرات الملوك والأمراء والعظماء فى أربعة أركان العالم ولكن ما من نظرة كانت أشد تأثيراً فيه من تلك النظرة الحزينة من عينى القيصر الزرقاوين الناطقتين بكآبة خرساء كأنها ترى من خلال الغيب قدراً عظيما ومصيراً أليماً . .

* * *

« ياحبيبى لشد ما طال بى انتظارك » هكذا صاحت آدا وهى تفتح ذراعيها لزوجها الذى ضمها بحنان إليه قائلا :

ــ ما من رحلة بدت لى أطول من رحلتى هذه ، أتعرفين ياحبيبتى أن الليالى الأخيرة كانت على أطول من الدهر كله وقد نفد فيها صبرى ولم يعد يسعدنى إلا أن أعود فأراك، وكنت إذا غنيت فكرت فيك وأخيراً هأنتذى . . .

ــ إنك تتركنى كثيراً وحدى ، إنكم أيها الرجال لن تعلموا

ما تحس به امرأة مهجورة .

ـ آدا ألست فنانة مثلى ؟ .. إنك تعلمين التضحيات التى تفرضها علينا مهنتنا الشاقة

ـ أعلم ياحبيبى ، وإن فنك عندك فوق كل شىء ، إنى أفهمك وثق أنى لا ألومك .

ثم تنهدت ونظرت عيناها الجميلتان نظرة ثابتة بعيدة غامضة ... ثم قالت :

ـ أما أنا فلا شىء يملأ حياتى مثل دورى كامرأة . . أن أكون امرأتك وأن أكون أم الولد الذى سيولد لك . . .

وخفضت آدا من صوتها عند هذه الكلمات وهى ترتجف على صدر زوجها الضخم ، وبعد صمت قصير همست بمزيج من الفرح والتواضع : « سأكون أما . . . »

وبعد بضعة أشهر ولدت له طفلا صغيراً جميلا أسود العينين زادهما صياحه وبكاؤه فى الليل حنانا وحبا .

وكان كاروزو يستيقظ ليلا على صوت نواحه فيظن أنه يحلم . أحقاً أن العناية الإلهية قد عطفت عليه كل هذا العطف وأحسنت إليه كل هذا الإحسان فمنحته ، فضلا عن الثروة والمجد ، زوجة محبة وطفلا جميلا ؟ .. وبيتاً سعيدا ؟ .. فإن

مهنته لم تحل دون تعلقه بالبيت وهو الذى حرم من نعمة البيت طفلا ومراهقا .

كان على الرغم من الجو الذى يعيش فيه رجلا شريفاً أميناً ليس له فى الوجود امرأة غير زوجته آدا . ثم ها هو ذا طفل قد ولد ليدعم الحياة الزوجية وقد سمياه رودلف تذكاراً لدوره فى أوبرا «الحياة البوهيمية» التى تعرف فيها بزوجته آدا .

* * *

واقترن اسم كاروزو بألمع الأسماء ، فعمل مع توسكانينى ، وغنى مع شاليابين وصدح مع فردى ، وغرد فى أعظم الروايات ، ولم يستقبل فى أرض كما استقبل فى باريس عام ١٩٠٤ حيث غنى أمام خمسة آلاف شخص بمسرح الشاتليه . وفى تلك الليلة نفسها أصيب فى مقصورته بإغماء وخفق قلبه حتى كاد يتمزق واضطروا أن يحملوه هكذا إلى المسرح طالبين من الجمهور أن يصبر على ما يريد حتى يسترد المغنى العظيم قواه ، وعاد كاروزو وغنى ولم يلق فى حياته تحية كتلك التى تلقاها تلك الليلة من شعب باريس .

* * *

كانت آدا مستغرقة فى أفكارها كأن عذاباً داخلياً يضنيها فترفع أحيانا رأسها ناظرة إلى محياها فى المرآة وتتأمل فى صورة

الزوجة وصورة الأم وتلتقى بتينك العينين النجلاوين الحزينتين وتقول لنفسها إنها ما زالت فى الثلاثين ، وإنها عاشت أياماً عصيبة وناضلت نضالا طويلا ولقيت النجاح والإخفاق ، وعرفت ما هو الحزن وما هى الدموع كما عرفت الفرح والنشوة والحماسة والهناءة ... ماذا يجرى فى مشاعرها . ماذا تتوجس من الغد . ؟ أيزهد زوجها يوماً فيها ؟ .. أيحول مرور الأيام حبه عنها ؟.. إنها فنانة مثله ، كل شىء عندها ينبع فيها ... أجل ما أقل ما فيها من الاستعداد لأن تكون زوجة وأن تكون أما ، هى التى لم تعد إلا زوجة وأما ....

وخلبتها من بعيد أنوار الأوبرا وعيون النظارة وتصفيق الجماهير ، وفى ذلك المساء نفسه أعلنت إلى زوجها رغبتها فى العودة إلى المسرح قائلة إن التياترو يناديها وإنها وقعت عقداً للعمل فى أمريكا الجنوبية .. فصاح كاروزو مضطرباً مذهولا :

ــ آدا أتفعلين هذا ؟ أتقدرين على التخلى عنى وهجر بيتك ونبذ ولدك ؟

ــ أنا أيضاً فنانة وما زلت شابة ولا أقبل أن تنتهى حياتى هكذا.. أفاهم أنت؟ ماذا تزعم؟ أظننت أننى كنت سأقضى بقية أيامى فى ظل مجدك ؟ إننى زوجتك ولكننى أيضاً آدا جياتشى ولا أريد أن أدفن حية ، أريد أن أغنى وأن أسافر وأجوب



كاروزو فى دور « راداميس » فى « عائدة » الشهيرة

الأقطار وأعيش الليل والنهار . . .

لشد ما تألم . إنه اليوم أشقى الناس وهى تعزيه بأن فراقهما لن يطول إلا ثلاثة أشهر ، وهو يأبى عليها الرحيل ، وهى تطمئنه . إن أخته ستتولى العناية بولدهما رودلف .

ـ وأنا يا آدا أفلا تفكرين فى ؟ أفلا يشغلك أمرى ؟ إنك تعلمين أن ارتباطى بعقد مع الاسكالا يضطرنى إلى البقاء فى ميلانو ويحول بينى وبين أن أصحبك فى سفرك . يالله . فكرى يا آدا !

ـ لقد فكرت طويلا ولا أستطيع غير ذلك شيئاً فقد أبرمت عقدى وإنى راحلة . .

* * *

لم يستطع ذلك الشيخ العجوز الفانى أن يشق طريقه إلى مقصورة كاروزو فى الاسكالا إلا بالجهد الجهيد ، فقد طفق يصيح صياحاً مزعجاً : إنه يريد رؤية تلميذه النجيب . وكان هوفرجين أستاذه القديم الطماع الذى طالما سخر منه وهزأ به وأذله وألقى به فى ركن من الفصل كمستمع فقير .

وقام له كاروزو مرحباً وقدم له مقعداً ووضع الشيخ مظلته البالية جانباً وهو يلهث . فسأله كاروزو عن حاله .

ـ حالى كما ترى فقد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، وأقفر الفصل من تلاميذى ... إنهم لا يحبون الشيوخ المحتضرين...

أما أنت فقد شققت طريقك وقابلت ملوكاً وحظيت بأعظم الأوسمة وصرت أغنى الناس ، أولم أقل لك ذلك كله يوما ما ؟

ونسى الشيخ أنه طالما أزرى بكاروزو الغلام المسكين وما زال كاروزو يذكر كلمة ڤرجين : « .. أية أحلام ينطوى عليها رأسك؟ أيجرى فى وهمك أنك ستغنى يوما فى الاسكالا ؟ »

ومع ذلك نسى كاروزو هذا ولم يذكر إلا الخير وقال له إنه عارف بجميله .

— ولكن الإنسان لا يعيش يابنى من عرفان الجميل ذلك أنك قد نسيت الشرط المعقود بيننا فأنت مدين لى .

فقال كاروزو : « مدين ؟.. » فأخرج ڤرجين من محفظته ورقة ممزقة الأطراف وقدمها إلى كاروزو .

— انظر أليس هذا إمضاءك ؟ أفلا تذكر أنك مدين لى بخمسة وعشرين فى المائة من دخلك ؟.. أتكون ضعيف الذاكرة إلى هذا الحد ؟.. أما وقد وصلت الآن فإنك تنسى وأنت مدين لى بنجاحك ووصولك ، وأنا أعلم أنك تقبض خمسة وعشرين ألف ليرة فى السهرة . فهل تتصور مبلغ ما أنت مدين لى به من منذ عامين ؟

فصعد الدم فى رأس كاروزو وانقلب لونه قرمزياً وصاح ثائراً :

— أولم يكفك أن تأخذ خمسة وعشرين فى المائة مدى عامين

أثناء عملى فى نابولى عند راسبورو ؟

فغمز الشيخ بعينيه فى خبث :

– إذن فأنت لا تريد أن تدفع ؟

– لا أدفع سنتيما واحداً ، فكفى هذا الاستغلال المعيب .

وطرد الشيخ الشره، فخرج وهو يقول : ستدفع يا كاروزو ، ستدفع . إن القانون سيضطرك إلى الدفع . .

٦ – الزلزال

تلقى كاروزو فى نيويورك برقية من آدا فيها كلمة واحدة «أصل» ، وشهد فندق والدورف استوريا العظيم ما لم يشهده قط من العناق والقبل . وكان النزلاء والموظفون والخدم ينظرون إلى كاروزو وهو يعانق زوجته على رءوس الأشهاد بدهشة وسخرية ولم تكن قد جاءت صافية بقدر ما جاءت لتنهب ما تستطيع نهبه من جبال الذهب التى تنهال عليه ، ولم يكن الذهب يكفيها لتستطيع الظهور به فى نيويورك هذه حيث تبدو الجبال تلالا ، فهنا لا يقف الغناء عند حد ، ولذلك أرادت أن تحمله على العودة معها إلى ميلانو حيث تصبح المرأة التى

لا يشق لها ولملايينها غبار . واستنفدت جميع الحيل للتأثير فيه ولكنها أخفقت . فقد كان يحب نيويورك وقد تأقلم فيها وفتحت له نيويورك كنوزها من المجد والمال والمحبة .

* * *

وقد حدث أن دعاه المستر وود ملك البترول إلى سهرة قدم له عنها أتعاباً تعد وحدها ثروة . واستقباله سكرتيره وأدخله إلى قاعة الموسيقى التى ازدانت حوائطها بأعظم اللوحات ووقف كاروزو مبهورا من كل هذا الغنى وكل هذا الجمال ... فما ثروته هو إلى جنب ثروة مثل هذا الشيخ العظيم السلطان . وفى أحد الأركان بيانو لانظير له مصنوع من الخشب النادر لانظير لألحانه .

وأخيراً ظهر سيد البيت ، وهو شيخ يجر ساقاً مشلولة ، ومصاب بالربو وأنفه كأنف الصقر ، فرحب بكاروزو ترحيباً حاراً ثم ارتمى فى ركن وجمد بلا حراك . وبعد لحظة جاء خادم فى ثوب موشى بالقصب ووراءه مربية فى ثوب ناصع البياض تحمل على وسادة كلباً يابانيا صغيرا استقبله الشيخ فى حضنه بابتسامة بلهاء وظل يربت بحنان على شعره الحريرى والكلب الصغير له رأس كرأس السمكة يتأرجح على ركبتيه . ورجا ملك البترول كاروزو أن يبدأ الغناء وكانت القاعة خالية .

فذهل كاروزو فأشار إليه زميله الموسيقار كأنه يقول : « مالنا ، وماذا يعنينا من أمره وهو رجل غريب الأطوار » وكان الشيخ يحدق بعينيه فى سقف القاعة كأنه ينتظر حدوث المعجزة . وعزف البيانو وغنى كاروزو ورفع الكلب الصغير أنفه فى الهواء كأنه يستمع ثم قام على راحتيه بحركة عصبية ثم نبح فجأة نباحاً رفيعاً حاداً متواصلا وعندئذ أشار صاحب الملايين إلى كاروزو بالسكوت قائلا :

– هذا يكفى فإن كل الذى أردته هو معرفة هل ينبح كلبى إذا غنيت .

فكان كاروزو يروى هذا الحادث لصديقه ومخرجه « ليدنر » الذى لايفارقه ويقول : «هذه هى أمريكا » ويضحكان .

* * *

وكان كاروزو يتلقى كل يوم مئات الرسائل من المعجبين والمعجبات يفتحها ليدنر ويرتبها ويرد عليها بمعونة سكرتيرين ويحمل إلى كاروزو الرسائل المستعجلة أو التى تستحق الاهتمام . ودخل عليه كاروزو فجأة فرأى فى يده رسالة أسرع ليدنر بإخفائها فى جيبه . فلفت ذلك نظر كاروزو ورأى اضطراب صاحبه . فأصر على أن يقرأ الخطاب فأخرجه ليدنر من جيبه كره منه وإذا فيه هذه السطور . . « إذا لم تحضر غداً

مساء فى الساعة العاشرة عند مدخل الممثلين فى تياترو المترو بوليتان مائة وخمسين ألف دولار فإن ذلك سيكلفك حياتك حتى ولو أبلغت البوليس . ضع النقود فى صحيفة ملفوفة وأمسكها فى يدك اليسرى وسلمها لرسولنا الذى سيقول لك هذه الكلمة التى هى شعارنا : « احذر اليد السوداء » .

وراح كاروزو يقطع الغرفة طولا وعرضاً وانقلب مرحه غما فقال له ليدنر :

— هذه سخافة وقد أنبأت بها البوليس . وتهديدات قطاع الطرق هؤلاء مسألة مألوفة فى أمريكا .

وفى اليوم التالى ، فى الساعة المعينة ، كان كاروزو يروح ويغدو عند باب الممثلين حاملا الملف المطلوب . وإذا برجل ضخم طويل ملتح قد أقبل وحدق فيه هامساً : «احذر اليد السوداء» . فسلم إليه كاروزو الملف دون أن يفوه بكلمة فرفع له الرجل قبعته واختفى كما لو انشقت الأرض تحت قدميه . وركض رجال من هنا ومن هناك ثم كان عراك سريع وحمل رجال البوليس الرجل إلى سيارة واقفة وهو يناضلهم بشدة وعنف كما سيق زميلان له فى الوقت نفسه أما الرابع فقد ولى الأدبار .

وفى مكتب الشرطة بدءوا يستجوبون اللصوص الثلاثة وقد سقطت من الرجل العملاق لحيته المستعارة وجثا على ركبتيه

يبكى ويتوسل سائلا الصفح والرحمة ، وأدلى الرجل باسمه :

– إنى أدعى أنطونيو مسيانو مغنى أوبرا .

وذهل كاروزو لدى سماعه هذا الاسم فإنهذا الرجل الشقى لم يكن إلا ملحن الكنيسة الصغيرة فى نابولى الذى عطف يوماً على كاروزو عند ما كان لا يزال عاملا صغيرا فى مصنع الفولاذ فتعهده مسيانو هذا نفسه وكان معلمه الأول وكان من المحسنين .

وخيل إلى كاروزوأنه فى حلم مزعج أو أنه قد اختلط عليه من تشابه الأسماء . لكن لا ... إنه هو بعينه ما فى ذلك شك. فحاول أن يعيد الأمر إلى نصابه بأن يذكر الرجل بالكنيسة والأرغول والغناء ويذكره بنفسه عند ما كان يدعى أنريكو الصغير بيد أن الرجل كان قد اختلط عقله فطفق يقول :

– أجل إن أجمل نساء نابولى كن طوع يدى ، ماركيزات وكونتيسات ومن كل الطبقات . واأسفاه ! لقد ظننت أن الدنيا أصبحت ملكا لى وأن كل شىء مباح لى وسيبقى لى . لقد كنت شاباً جميلا غنياً قوياً وزعمت أننى أعظم مغن فى العالم فجئت إلى أمريكا فلم أوفق إلى شىء . لقد خاب فألى وانهد ركنى وأخفقت وسقطت .

وعندئذ التمس كاروزو من البوليس أن يطلق سراح الرجل

فقد سحب شكواه ضده وهو يراه غير مسئول عن فعلته لأن بعقله مسا . ثم التفت إلى صاحبه نيدنر قائلا :

— فلنتعهد مسيانو حتى يقضى بقية أيامه مطمئنا فى ملجأ أو مصحة . . .

.. ولم تستطع نيويورك على عظمتها وثروتها أن تحتكر كاروزو لنفسها وحدها برغم أنها تدفع له فى كل ليلة ألفى دولار ، فقد كانت أمريكا كلها تتمناه وغطوه بالذهب حيث سار . وغزا أمريكا كما لو كان بطلا فاتحاً ، فتنقل من شيكاغو إلى دار أوبرا سان فرنسسكو ذات النوافذ المائة مضاءة بالثريات مزدانة بالأعلام.

* * *

واستيقظ كاروزو مذعورا فى الساعة الخامسة من الصباح كما لو كانت قد أيقظته من سباته ضربة عنيفة من قبضة يد حديدية . وسمع دوياً يصم الآذان كما لو كانت السماء ترعد أو المدافع تقصف .

ماذا جرى ؟ ولم يكد يجد وقتاً للتفكير حتى ألقته هزة هائلة عن سريره ودار كل شىء حوله وترنح وصار ذلك البناء المشمخر من الجرانيت يرقص كسفينة تمخر فى بحر هائج . وقام كاروزو من الأرض بعناء كما لو كان رجلا مخمورا وفتح النافذة وكأنما الأرض الخشبية قد انهارت تحت قدميه فتعلق بالنافذة

ونظر إلى ذلك المشهد الخارق الذى تكشف لناظريه على أضواء الفجر الأولى . كانت بيوت سان فرنسسكو الجميلة البيضاء ترقص كما ترقص الأغصان فى مهب الريح . فكان السكان يخرجون فى قمصان النوم صائحين صارخين فى ذعر لا يوصف.

فأطبقت يد كاروزو المتشنجة على قبضة النافذة وتاهت عيناه واختل توازنه وسقط فى إغماء . إن هزة أرضية مروعة قد زلزلت المدينة . وغامت السماء وكأن نهاية الأرض قد دنت وحان يوم القيامة .

واستيقظ كاروزو إثر زلزلة أخرى تكسرت منها ضلوع المدينة فخيل إليه أنه يسمع الدنيا تهتف له فانطلق يغنى لكن الحقيقة لم تلبث أن دهمته ، فقد رأى الموت على قيد أصبعين منه فأخذه الهلع وأراد أن ينجو بجلده ولكن إلى أين المفر ؟ فدعا العذراء وابتهل إلى الله وكانت الساعة الخامسة والربع صباحاً ولم يكن قد مضى على ارتمائه على سريره ما خيل إليه أنه بضع ساعات ، وكان لابسا منامته «بيجامته» وهو حافى القدمين وما من وقت لارتداء الملابس فإن كل شىء سينهار من فوقه فى بضع ثوان ، ماذا يحمل معه ؟ . واتجه بصره إلى حقائبه الضخمة وإلى التذكارات التى تزين الغرفة فلم يجد غير صورة زوجته آدا وولده رودلف ، فأخذهما كالمجنون تحت إبطه

والتى بنفسه مرتعش الساقين إلى السلم الكبير وكان فى القاعة فتى يروح ويجىء كالمخبول وأمام الباب الزجاجى الدوّار الذى انكسر زجاجه امرأة نصف عارية مطروحة أرضاً فمد لها يده لينهضها فألفاها جثة هامدة فتخطاها وخرج .. رباه!! أهذا هو الشارع العظيم الذى كان يعجب به أمس فقط ؟ إنه صار أنقاضا على أنقاض وكأنما قد حرث إفريزه محراث هائل وهنا وهناك حفر كبيرة وصغيرة وقد تفجرت مواسير الماء والغاز وبصقت ما فيها إلى عرض الطريق والناس مصفرة وجوههم فى ثياب نومهم كأنهم أشباح موتى نهضوا من قبورهم متزملين بأكفانهم يسيرون على غير هدى كالممرورين . وهناك نساء شعرهن أشعث ووجوههن ذابلة ، قد حملن أطفالا تائهين عن الرشد يجرين صارخات تتمزق أجسادهن من الحجارة التى تلقى عليهن من هنا ومن هناك كأن الشياطين تتبعهن وترجمهن .

فوقف كاروزوفى وسط هذه الكارثة الفادحة ، أين رفاقه ؟ إنه وحده فى هذه الوحشة القاتلة ، أيمكن أن يخطر للمرء شىء آخر غير النجاة بجلده ؟ إن الموت فى كل مكان يتعقبك ، ويشير بإصبعه إليك .

إن الموت فى الهواء، والموت فى الأرض ، والموت فى الفضاء ، والموت يجىء من جميع الأنحاء . إن كل شىء قد غدا سلاحاً

للموت . إن السماء نفسها قد صارت كأنها غطاء نحاسى هائل يضرب رءوسنا ولا يلبث أن ينطبق فوقنا ويكتم أنفاسنا ويسحقنا سحقاً .

أين رفاقه ؟ أتراهم مزقوا تمزيقاً ودفنوا أحياء ؟ ولمن هذه الأذرع وهذه الأيدى ؟ وساق من هذه ؟

ثم التفت فرأى الفندق الذى كان ينزله ما زال واقفاً كأنه يتحدى وإن كانت قد سقطت بعض حوائطه هنا وهناك فكشفت عما وراءها .

والآن فقط تبين هذه المحنة وعرف أن الأمر ليس تمثيلا ، وأنه أمام زلزال الأرض وأن هذا الزلزال قد قلب سان فرنسسكو أجمل المدن رأساً على عقب ، وهدم الزلزال أعظم آيات العمران.

وفكر كاروزو فى نابولى مسقط رأسه ، أرضه العزيزة التى يهددها دائماً بركان ڤيزوڤ بالحمم واللهب ليل نهار ، وفى سكوته تهديد وفى ثورته وعيد . . . وها هى ذى سان فرنسسكو فى ١٩ أبريل سنة ١٩٠٦ قد مسحت من خريطة الدنيا . وسمع امرأة ثار شعرها فى الهواء وقد تمزق بدنها وتفجر منها الدم كما لو كانت جنية أو ساحرة من ساحرات قصص شكسبير ، تلك هى مارسيل لمبردج ذات الصوت الذى كان بالأمس كرنين البلور . قد انقلب صوتها وحشياً مخيفاً أجش ، ولم يعد حلقها

العجيب إلا صرخة دامية : « جواهرى ؟! ! أين جواهرى ؟! ! »
ثم خفت الصوت ، ثم اختفى المشهد كما لو لم يكن من هذه
الأرض . وما زالت ألسنة النيران مندلعة ، والتراب ثائرا ،
والحجارة تتطاير ، وفى السماء انعقدت سحب لا حد لها وبقيت
بعض دور نادرة واقفة فى انتظار مصيرها ، والعواصف
تعصف بها ،وسقطت التماثيل المنيعة عن قواعدها كما لو كانت
قد أبت أن تبقى شاهدة صامته جامدة أمام هذه الفاجعة .
وسقط مصباح هائل عند قدمى كاروزو دون أن يصيبه فأحس
فى داخله بصوت خفى جلى ينهره « انج بنفسك ! » ولكن إلى
أين ؟ . فى أى طريق ؟ ما من طريق أمامه ! أين يختبىء ؟
مامن سقف يحمى نفساً حية ، أيطلب النجدة ؟ أى أذن يمكن
أن تسمعه ؟ وأى صدى يمكن أن يلبيه ؟ فأحس بالبرد يبلغ
نخاع عظامه فارتجف رعباً واصطكت أسنانه . أتراه لا يلبث
أن يرقد إلى جنب هؤلاء الذين رقدوا من حوله ولن يقوموا أبدا .
وكانت بين الموتى وجوه بشعة مشوهة شنيعة ، ووجوه تعبر عن الراحة
والطمأنينة . لقد عزلتهم الحياة ولا شىء يعذبهم بعد ! ! كانت
تلك جثث العمال الذين كانوا يسيرون عند الفجر فى سكون
إلى مصانعهم ومعاملهم ، وكانت جثث نساء محبات محبوبات
نزعن من نومهن الهنىء ، ومن فراشهن الدافئ ليلقى بهن فى

غياهب الموت وأتون المنون .

لشد ما تمنى كاروزو أن يرتمى أرضاً وينام وينسى ، ولكن لا ، لن ينام ، وإنما سيهرب . فأخذ يجرى وقدماه تتمزقان على الحجارة ، ومن حوله رجال ونساء يجرون مثله باحثين عن ملجأ أو مخبأ . وظل كاروزو يجرى حتى انقطعت أنفاسه ، وتفتت فؤاده مما شاهد ، ومما سمع . ومر بفندق نيويورك الكبير من دون أن يعرفه فقد كان منهارا على المئات من سكانه . . . وعرف بعد لك تياترو كولومبيا من قبوين باقيين ، ومازال يصطدم بالموت فى كل خطوة ، وفى كل خطوة مصادفة عجيبة تنقذه ، ففكر فى أمه ، والصورة ، صورة زوجه وابنه التى كان يحملها ، لم يعد يدرى أين ألقاها . ثم انشق كبد السماء فجأة ، واندلعت ألسنة اللهيب فى الخرائب والأطلال ، ولم يعد ثمة ماء يمكن أن يطفىء ذلك الحريق الهائل الذى ظل يمتد ثم يمتد إلى غير حد . كانت النيران تزمجر وتدوى وتصفر صاعدة نحو السماء لتهاجم السحب التى تلقى عليها أيضاً غمامها كأنه دخان نيران أخرى . . صراخ . . انفجارات ، أحجار منشققة ، زفرات أمهات يبكين أولادهن ، صفارات الغارات ، أزيز الريح كل أولئك كأنه حفلة موسيقية صاخبة ذات ألف آلة وآلة . أجل إنها حفلة الخراب والجنون والموت . ووصل كاروزو أمام

عمارة جديدة كبرى شقها الزلزال نصفين فصعد إلى الطابق الأول من السلم الذى لم يمس ووجد فى مكتب التلغراف مراسل جريدة نيويورك هيرالد تريبون وبين أسنانه سيجارة وهو يعبث بالأنباء إلى جريدته ، وبين الفينة والفينة ينظر إلى الطريق ويسجل الحوادث بثبات وعدم اكتراث يحيران الألباب ، ها هو ذا الصحفى باريت يرسل الأخبار بهدوء عجيب ، فصرخ فيه كاروزو : « يا هذا انج بنفسك ! . »

فلم ينظر إليه الصحفى ليعرف من هو ، ولكنه أجاب :

— عليك بما يعنيك ! .

ثم نظر الصحفى حوله ورأى المركز الدقيق الذى هو فيه فعلى بعد خطوتين منه قد انشقت أرض الغرفة وصارت تعمق شيئاً فشيئاً كما لو كان مارد جبار يلتهمها من بطنها التهاماً . وعن يساره الحيطان تهتز اهتزازاً مخيفاً ، فهز كتفيه ومضى فى عمله .

— « أظن أن هذه البرقية هى آخر برقياتى ، فالجدران تهددنى بالدفن تحتها لكنى سأثبت حتى النهاية فلن تتاح لى أبداً فرصة لوصف ما أراه فلننتهزها . إن هناك ألوف الجرحى والموتى ، وقد أقبلت فرق من الجنود تغزو الخرائب وتطلق النار على الذين ينهبون ويسابون ، ولم تعد دار البلدية إلا ذكرى فإن قبتها البرونزية الشامخة قد هوت إلى حضيض الأرض . والذين يتمسكون

بالحياة يتكدسون فى وسط الميادين حيث الأرض أسلم وأضمن...
وإلى يسارى . . . »

وفى هذه اللحظة نفسها انهارت الحيطان وتلاشت يد الصحفى العنيد وسقطت عن الجهاز التلغرافى . . إن مراسل النيويورك هيرالد قد تحول فى لحظة إلى بطل من أبطال المهنة وصار بدوره خبرا من الأخبار . . . .

وسمع صراخ . . .

– احذروا . إن المجاذيب قد هربوا من المستشفى . اختبئوا !

فقد كان فى مستشفى المجاذيب أكثر من ألف شخص مات منهم فى الزلزال سبعمائة وراح المجانين يركضون فى المدينة وهم يصرخون مختلطين بأولئك الذين ذهبت الكارثة برشدهم . لم يعد ثمة عقلاء ومجانين ، الكل سواء ! .

ووصل كاروزو فى تجواله إلى الأوبرا حيث غنى بالأمس وكان البناء المشمخر قطعة من اللهب ، فهاله هذا المنظر وصار يندب ويصرخ : «أطفئوا النار ، أطفئوا النار .» فلم يسمعه أحد ، فانخرط يزفر ويجهش بالبكاء وظلت الأوبرا كشعلة هائلة تتأجج ثم تخبو شيئاً فشيئاً ، وبعد بضع ساعات صار معبد الفن والمجد هشيما تذروه الرياح . ومضى كاروزو فى هلع لا يلوى على شيء ، الموت فى أعقابه ، وهو يركض أو يمشى وإذا برجل

يصرخ فى وجهه بغتة :

— هات نقودك ! أسرع !

فرفع كاروزو قبضته كالمطرقة وضرب بها يافوخ الرجل فترنح هذا وفى يده مدية لامعة ولكنه قبل أن يسقط أرضاً كانت قد أصابته رصاصة من الجند فأفلتت من يده مديته. لقد نجا كاروزو مرة أخرى بمعجزة من الموت ، وهرب ، وظل يهرب باحثاً عن النجاة والناس من حوله يبحثون مثله . . .(قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) . (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) .

٧ — الهـــزأة

قضى كاروزو فترة من الزمن مريضاً وإلى جانبه صديقه الوفى ليدنر يتولاه بعنايته ويؤكد للصحفيين الذين لا ينقطعون عن زيارته أن المغنى العظيم لم يفقد صوته كما أشيع وكما تصور كاروزو نفسه . لقد بح فعلا صوته ، فإن تأثير تلك الحوادث فيه كان صدمة كبرى هزت أعصابه وظل منها زمناً عليلا ، وقصد ميلانو حيث صقلوا له الحبال الصوتية التى كانت قد

أصدأها الإفراط فى التدخين ، واضطر إلى التزام الراحة مدة طويلة تحت سماء إيطاليا الساطعة ، ونذر كاروزو للعذراء نذرا إن هى ردت إليه صوته ، ففعلت ، ونجحت العملية الجراحية ، ونجت القيثارة الذهبية ، وعاد إلى الأجراس رنينها العجيب .

وفى ذات أصيل بينما كان مستلقياً على تراس فندق سورنتو ، وقرص الشمس الأحمر يغوص فى البحر الذى كأنه من وهجها مخضب بالدماء ، رفع كاروزو ذراعيه كما لو كان يدعو الله وحيا شمس بلاده البديعة التى تسحر الكائنات وتبعث فيها من خيوطها ألحانا . . وغنى كاروزو بفرحة ونشوة اهتز لهما كيانه كله ، فرحة ونشوة لم يعرفهما من زمن طويل ، وارتفع غناؤه لحنا للحياة ، لحنا للنجاة ، وصلاة لله .

وتوقف المارة تحت شرفة الفندق وتزاحموا يستمعون ، وكأن الفرحة فرحتهم والحياة حياتهم ، والعيد عيدهم . . . هذا هو البعث . . لقد بعث كاروزو وبعث الفن من صوته . وسكت كاروزو وغابت الشمس وتحول البحر الدامى أزرق صافياً.

وبعد شهرين سافر كاروزو فى رحلة أوروبية كبرى وكانت لندن أول مدينة قصدها وظهر على مسرحها ففتحت له أبواب أمجاد جديدة .

ووقف الحرس الملكى فى ثيابهم الموشاة بالذهب على جانبى السلم الخارجى الكبير لقاعة ألبرت . . . « ألبرت هول » التاريخية وكانت لندن كلها هناك داخل القاعة وخارجها ، وكان فى انتظار رفع الستار عن كاروزو ثمانية آلاف شخص ومن بينهم الملك والملكة وبلاط إنجلترا كله .

وفرغ صبر الجمهور فبدأ يصفق وتعالت صيحاته فى طلب كاروزو ، وطال الوقت، لا شىء . لا الستار يرفع . ولا المغنى يظهر . كيف ؟ من ذا الذى يجرؤ على أن يجعل ملك إنجلترا ينتظر ، وشعب لندن ينفد صبره ، لقد بدأ اللندنيون يغضبون من طول الانتظار ، ومضى الموعد المحدد وهذا هو الفرق بينهم وبين غيرهم فلو كانوا أهل نابلى لحطموا المقاعد تحطيما . وظهر مدير المسرح معتذرا عن غياب كاروزو بأن ضعفاً أصابه لا يلبث أن يشفى منه بعد دقائق ثم انقضت الدقائق وطالت .

وأسفاه لا بد لكاروزو من الغناء الليلة وإن كان الحزن يطعن قلبه فقد مات الليلة أبوه . ..وكان رجلا طيباً ، وكان كاروزو يحبه ، وقد أسعد أيامه الأخيرة وبسط له ألواناً من العيش الرضى والمتاع الذى لا عهد له به .

وشعر كاروزو أنه لم يبق له من الدنيا غير زوجه وولده .

وأقبل على قاعة ألبرت هول متأخراً تجول فى رأسه ذكريات طفولته وما أنزله الدهر به وبأهله من فقر وإملاق ، لكن الدهر كان يخبئ له فى تلك الليلة فجيعة أخرى أشد هولا من وفاة أبيه...

فلما دخل رأى رفقاءه الممثلين مزدحمين حول جريدة يتنازعون قراءتها ، فدهش إذ رآهم يحاولون إخفاءها. فسألهم عن أمرها، وساورته الهواجس فانتزعها منهم بعنف وكانت نسخة من جريدة « كورييرا دلا سيرا » تحمل فى صفحتها الأولى بالخط العريض عنواناً ضخماً « آدا جياتشى تهرب من زوجها ! ».

وطالع كاروزو المقال الساخر وفيه تفاصيل ممتعة عن هرب آدا مع سائق سيارتها « سيزار رومانى » وقد حملت الطائشة معها جواهرها وحليها وكل ما وصلت إليه يدها مما خف حمله وغلا ثمنه.

— آدا تهرب ؟ أمر غير معقول لا يصدق ... ومع سائق ؟ ياللعار ! ! أيبلغه هذا النبأ الشنيع عن طريق الصحف ؟ أتبلغه هذه الخيانة البشعة عن تلك التى أعطاها قلبه ونفسه وماله واسمه ؟

وقرأ ، ثم قرأ ، وهو لا يكاد يصدق هذه المجلة ، هذه الفضيحة ، هذه الكارثة التى سقطت على رأسه وهو فى ذروة مجده ، كما انهارت أعمدة سان فرنسسكو على رءوس سكانها فجأة بلا سابق إنذار .



كاروزو فى دور « المهرج » - بلياتشو -

وسقطت الجريدة من يده ، وكأن حياته قد سقطت معها كما سقط شرفه ... وحاول رفاقه أن يخففوا عنه البلوى ، فلعل الخبر زائف أو مدسوس على الجريدة . أما هو فقد راح يندب حظه وتفجر منه غضب وحشى ، وانقلب صوته السحرى إلى صوت أجش تجرد مما فيه من إنسانية واستحال عواء حيوان جريح .

— لقد أبقت الشقية الخائنة ، الفاجرة ... لقد هجرتنى لتهرب مع سائق وتعيش فى الدنس ! . .

وكأنى بأحزان الأرض جميعاً وآلامها وتجاربها ومحنها قد انهارت فوق رأسه كما انهار بيته . فسقط على المقعد وقد تخضب وجهه بالدم فأ خفاه فى يديه المرتعشتين وظل هكذا طويلا يبكى وينشج كالطفل .

— كلا لن أغنى الليلة .

— كاروزو ! لا بد من الغناء ، إن شرفك مرتبط بالغناء الليلة ...

— لم يعد لى شرف . لم يعد لى عرض . لم يعد لى بيت . دعونى جميعاً فلن أغنى .

— إن الملك والملكة هنا من أجلك .

— لا أستطيع .

— إن ثمانية آلاف شخص يهتفون باسمك .

– ومن أنا ؟ ومن أكون ؟ ألست هزأة ؟ ألست مهرجاً ؟ ألست لعبة « بلياتشو » يجب أن يضحك الناس منه فى حين يتمزق قلبه ؟

– بربك يا كاروزو .. إنك لا تستطيع أن تهين ملك انجلترا وإلا كانت كارثة .

– اذكروا عذابى ، مامن نغمة يمكن أن تخرج من حلقى اللهم إلا نباح جراحى .

– إذن لا تغن إلا صوت عذابك وآلامك ، دع البرنامج كله جانباً وغن للملك ، وغن للناس لحناً واحدا .. لحن « اضحك أيها البلياتشو »

وقبل كاروزو ، وكان ذلك فى اللحظة الذى بدأ المتفرجون يخرجون فيها عن طورهم ويتخلون عن تقاليدهم الإنجليزية ، وتكهرب جوقاعة ألبرت هول على رغم وجود الأسرة المالكة، لكن لم يكد كاروزو يظهر حتى تعالى له الهتاف ، فقد كانوا لا يعرفون مصابه واقترب كاروزو من الأضواء وهو يكتم التنهدات فى قلبه والزفرات فى حلقه ثم عزف الأوركسترا اللحن الذى يمزق الفؤاد ... « اضحك أيها البلياتشو »

* * *

لم يكن قط كاروزو – ولن يكون ! – مثلما كان فى تلك الليلة

عظيما جميلا ، فقد كان ذلك النغم صدى العذاب والألم . ها هو ذا كاروزو المخدوع المعذب المطعون فى شرفه وفى قلبه يعبر بالغناء عن عاره وعن ألمه .

اضحك أيها البلياتشو ، اضحك وأمتع الآخرين بالمرح والمسرة من حبات قلبك التى تذوب .

اضحك أيها البلياتشو وامزح أيها الهزأة المتنكر المسكين ، وسلّ الجماهير من صميم نفسك الدامية . اضحك أيها البلياتشو وأنت واقف على أطلال حبك المدفون لتتلقى تصفيق الجماهير ، ألق بقلنسوتك عن رأسك أيها الأضحوكة حتى تزداد الجماهير ضحكاً ، لقد بيضوا وجهك وحمروه وصبغوه ألواناً شتى لكى تخفى عن الناس ملامح العار والشنار ! !

وإذا خانتك تلك التى تحب ، وإذا خدعتك تلك التى تؤمن بها فلا بأس . العب واضحك وغن أيها الهزأة ! !

لقد غنى كاروزو ذات مأساته وسكب فى غنائه صرخات وزفرات وضحكات وعبرات حياته نفسها. وخفق ثمانية آلاف قلب لخفقات قلبه ، وجمد ثمانية آلاف مخلوق فى أماكنهم فى حالة انجذاب روحى كأنهم إخوة جاءوا لتعزيته ، لقد قدم إليهم كاروزو مأساته فجعلوها مأساتهم ! !

* * *



كاروزو فى دور « المهرج » - بلياتشو - كاريكاتور له بريشته .

نصر على نصر فى كل مكان . وعند ما غنى فى باريس صعد الفنان الأشهر كوكلان خالق دور سيرانو دى برجراك قفزاً إلى المسرح ونزع عن صدره وسام اللجيون دونور وعلقه على صدر كاروزو .

وفى لندن غنى مرة أخرى فى حضرة ألفونسو الثالث عشر وجورج الخامس .

وفى برلين احتفى به غليوم الثانى فى حفلات متتابعة .

وفى براغ راحت النساء المفتونات به يقطعن «سترته» ويأخذن من «كسوته» تذكاراً عزيزاً .

وفى ميونيخ سرحوا خيول عربته وحملوه على الأعناق .

وفى كل مكان انهالت عليه الأوسمة والآلاء والرتب . وسام جوقة الشرف الفرنسى . وسام الملكة فكتوريا . وسام النسر الأحمر . وسام الكومندتورى. وسام الكمرسنجر . وسام الكافيليرى وغيرها وغيرها .

ماذا يهمه من هذا كله وهو الطريد الشريد بلا حب ، ولا بيت ... ؟!؟

٨ — الفضيحة

لم تكد تمضى بضعة أسابيع على هرب آدا حتى وقعت لكاروزو مغامرة كفيلة بأسوأ العواقب ، وبلغت المسألة حداً كاد يقضى على حياته الفنية كلها ، فهى فضيحة دونها كل الفضائح ...

ذلك أنه قد أصيب عقب تلك الصدمة برد فعل غريب . تنبهت فيه عوامل الاشتهاء بدرجة جعلته يفقد توازنه ، فانكب على حياة الخمر والنساء على نحو لا عهد له به من قبل ، واندفع فى هوس الغراميات السطحية فلم يعد يهوى من دهره غير المرأة والكأس، ولم يعد يتحرج من شىء ، فاتخذ عشيقات من المغنيات والراقصات والطائشات والمعجبات ، لكن هذا كله كان يمكن أن يمضى تحت ستار من التحفظ لا يتنبه إليه أحد ، لولا أنه بحث عن لذات أخرى فيها من الشذوذ أنها عمل علنى، وأنها فعل فاضح . فاتخذ منطقة لنشاطه الشهوانى حديقة الحيوان بنيويورك ، وسرى الهمس من أذن إلى أذن ، من المربيات إلى الطالبات إلى العاملات ، إلى الزوجات من

الأمهات بأن هناك رجلا عملاقاً يلاحقهن ويتحكك بهن ويضايقهن وأن بطل هذا العمل المخزى شخص ضخم له عينان ناريتان وشارب أسود وكتفان عريضتان ، أنيق الثياب يأتى كل يوم ويختلط بجماهير المتفرجين على أقفاص الحيوان ويقوم بمناورة بارعة ليحاصر إحدى الحسان فيقترب منها ويحتك بها إلى حد أن يداعب شاربه أذن فريسته الفاتنة على حين تكون يده من تحت طيلسانه الأسود تداعبها وتتحسسها ... فماذا تفعل المرأة ؟ هل تصيح وتصفع هذا المعتدى الجرىء وتطلب النجدة والغياث ؟ أو أن الحياء يمنعها والخوف من الفضيحة والسؤال والجواب أمام البوليس والنيابة يحول بينها وبين الاستغاثة فتسكت أو تنصرف ؟

وبلغ عدد ضحايا هذا الشخص فى حديقة الحيوان عدداً كبيراً، وهو كل يوم فى ازدياد، فلم تكن ثمة امرأة رشيقة تستطيع أن تجازف بدخول الحديقة إلا وتتعرض لهذا الحصار الأليم من ذلك المعتدى الأثيم . إلى أن جاءت ذات يوم مسز جونسون وهى امرأة شابة ، زوجة السناتور جونسون عضو مجلس الشيوخ الأمريكى مصحوبة بولديها ووقفت معهما أمام قفص القردة يستمتعون بألعابها البهلوانية التى تشرح الصدور ، ولما رأت من ألعاب القردة بعض ما قد يخدش حياء العذارى همت بالانصراف

لتجنب بنتها ما يثير أشياء فى مخيلتها وإذا بهذه الأم الرشيقة تحس فجأة على خصرها ضغطاً غريباً . ومسز جونسون كانت بروتستانتية تقية إلى حد أنها تعد « حنبلية » فلم يرقها ما حدث وبلغ من دهشتها أن التفتت فجأة فرأت رجلا غير زوجها فارع الطول على كتفيه طيلسان أسود « حرملة سوداء » فصرخت صرخة عالية وضربته بمظلتها الأنيقة وأحاط به الناس وكادوا يفتكون به لولا أن جاء أربعة حراس أنقذوه من براثن الجمهور وقادوه إلى مركز البوليس .

— أنا أنريكو كاروزو . ولم أرتكب وزراً .

— ستدلى بما عندك أمام المأمور ، أما الآن فسر.

وقادوا المغنى فى سيارة .

وأدت شهادة الشهود إلى أن يصدر مأمور البوليس أمره بالقبض على كاروزو المغنى فى أوبرا المتروبوليتان .

ولم يكد أصحابه وفى طليعتهم ليدنر يسمعون الخبر حتى هرعوا لنجدة المايسترو .

— يا سيدى المأمور إن الماثل أمامك هو أعظم مغن فى الدنيا.

— آسف أيها السادة ... فنحن هنا لسنا فى الأوبرا .

ولم يمكن الإفراج عن كاروزو مؤقتاً إلا أخيراً عند ما حضر مدير المتروبوليتان بنفسه وضمنه بشخصه وبمائة ألف دولار .

* * *

وسارت بذكر الفضيحة الركبان ، وكان كاروزو سيغنى يوم الثلاثاء من الأسبوع الثانى فى الأوبرا فحوصرت الدار خشية أن تحدث ضده مظاهرة ، فإذا بالمظاهرة له وانتصر للصوت الجميع وسخر الجمهور من المتعصبين ! !

غير أن هذا الانتصار المحلى لم يخدع كاروزو فقد أدرك أن مهنته ونفوذه على كف عفريت وأن مصيره نفسه متوقف على حكم المحكمة .

وانتشرت الفضيحة حتى جاوزت نيويورك بل جاوزت حدود أمريكا ونشرت الصحافة العالمية هذا الحادث وعلقت عليه بما يملى هواها ، وتحفظت الصحف الإنجليزية فى التعليق ببرودها المشهور ، ولم ير الكتاب المسرحيون علاقة ما بين أصوات الغناء وأشكال النساء . أما الصحافة الإيطالية فقد عدت ذلك الاتهام تهجماً على وطنها وعلى فنها وطالبت بعودة كاروزو لتفتح له الاسكالا أبوابها على مصاريعها .

أما الصحافة الباريسية فقدعلقت على ذلك بالتسامح المعروف عنها واتخذت منه دعابة سائرة وروت إحداها لهذه المناسبة نكتة مأثورة عن الملكة مارى أنتوانيت : فقد حدث فى يوم جميل من أيام الربيع أن كانت الملكة تجرى فى ممشى بالقصر

وقد ارتدت ثياباً خفيفة شفافة فحسبها أحد رجال الحرس وصيفة يعرفها فضربها بكفه ضربة قوية على عجزها فالتفتت الملكة فلما رآها كاد يصعق من هول غلطته وقال :

«— يا صاحبة الجلالة. إذا كان قلبك جامداً كعجزك فإنى إذاً لمن الهالكين ...» فابتسمت الملكة من النكتة وصفحت ...

لكن المحيط الأعظم يفصل فرنسا عن أمريكا ، وهناك هوة عميقة لا يمكن اجتيازها فى المعتقدات والأخلاق والتقاليد والعادات . لذلك ظلت الفضيحة تشغل الرأى العام زمناً طويلا .

* * *

كانت شهادة الشاكية فى الجلسة صريحة لا يتطرق إليها الريب ، فقالت مسز جونسون إنها لا تعرف المغنى ولم تره قط على مسرح تمثيل ، وكانت تعرف من الصحف أنه رجل مشهور ولكن ماذا يعنيها من أمره ، إنها تريد حكماً عليه ليكون مضرب الأمثال .

وكانت قاعة المحكمة مكتظة بالناس ، وبخاصة النساء ، وجاء مواطنو كاروزو وانتشروا فى القاعة متأهبين ليدفعوا عنه الأذى .

ومثل كاروزو فى قفص الاتهام شاحب الوجه كلون الشمع ، وكان محاميه من أشهر محامى نيويورك وأشدهم تأثيراً وأوسعهم نفوذاً ، وكان على اتفاق مع المغنى على خطة الإنكار ... إنكار

كل شيء ، وكان الفنان يعلم أن المحكمة إذا حكمت بأنه مذنب فقد انتهت حياته الفنية ،أو على الأقل انتهت فى أمريكا . وكانت الجمعيات النسوية قد أعلنت مقاطعته فلم يعد ثمة تياترو يمكن أن يجازف بظهوره على مسرحه .

وكل رجل غنى ، وكل رجل مشهور له حساده وأعداؤه ، وأولئك الذين يريدون القضاء على كاروزو قد بذلوا فى هذه السبيل جهدهم كما تواطأ عليه خصومه ومنافسوه . لقد كانوا على استعداد لعمل كل شيء حتى يخفت ذلك الصوت الذى يجلب لصاحبه فى كل سهرة ثلاثة آلاف دولار .

* * *

دقت مطرقة الرئيس معلنة بدء الجلسة وابتدأ توجيه الأسئلة .

الرئيس — أتعترف بالوقائع ؟

كاروزو — أقسم على أنى برىء (لغط فى القاعة)

الرئيس — (بعصبية) سكون أو آمر بإخلاء القاعة . ولكن كيف والشاكية قد صرخت وضربتك بمظلتها ؟

كاروزو — لا شيء من هذا صحيح .

الرئيس — (إلى المسز جونسون) أعندك ما تقولينه ؟

مسز جونسون — (ملتفتة نحو كاروزو) إنه يكذب . لقد أمسكنى من خصرى وعند ما صرخت توسل إلى أن أسكت

قائلا لى : (أنا كاروزو أعظم مغن فى العالم)

الرئيس – ماذا تقول يا كاروزو ؟

كاروزو – إنى أشد ما أكون اندهاشاً من رد هذه السيدة إذ تدعى أننى قدمت إليها نفسى مصحوباً باعتذار .

الرئيس – هل تعرف قرينة السناتور جونسون ؟

كاروزو – إنى لم أسمع قط هذا الاسم .

الرئيس – هل كنت فى حديقة الحيوان يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ؟

كاروزو – نعم .

الرئيس – هل وقفت أمام قفص القرود ؟

كاروزو – نعم .

الرئيس – لماذا ؟ (ضحك)

كاروزو – إن لعبها يسلينى .

الرئيس – هل تعترف بأنك ضايقت مسز جونسون ؟

كاروزو – كلا !

الرئيس – فلنسمع الآن الشهود . ناد أيها الحاجب مس ماتريس .

(تدخل)

الرئيس – ما صناعتك أيتها الآنسة ؟

الشاهدة — من مجموعة الكورس بفرقة المتروبوليتان .

الرئيس — أتعرفين المتهم ؟

الشاهدة — أجل إنه المغنى الأول فى الأوبرا .

الرئيس — ماذا عندك ضده ؟

الشاهدة — (مضطربة) يا سيدى الرئيس إنى أشعر .. بالخجل إذ أذكر أشياء محرجة ... جداً أمام كل الناس .

الرئيس — (يأمر بإخلاء القاعة وجعل الجلسة سرية . مظاهرة من الجمهور ضد المحكمة)

والآن تستطيعين أن تتكلمى بحرية .

الشاهدة — إن هذا الرجل قد لاحقنى مرات عديدة . ولا أذكر التاريخ ولكنه أخيرا حوالى آخر أكتوبر فى حفلة تمثيل رواية ولكرى بعد ما فرغت من دورى ربت على صدرى.

الرئيس — وبعد يا ابنتى ؟

الشاهدة — ثم دهمنى ... وأراد أن يمسك بخصرى وهو يهمس لى بكلمات فاضحة معلنا لى أنه يتبع العذراء المتجردة التى فى مثل جمالى حتى قاع البحر .

الرئيس — أهذا كل شىء ؟

الشاهدة — وبعد هذا ضمنى بقوة إليه وأراد أن يسوقنى إلى

مقصورته واعداً إياى بأشياء كثيرة ... وبالجهد الجهيد تخلصت منه وهربت .

الرئيس — ولماذا لم تقدمى شكواك إلى المدير ؟

الشاهدة — وما حيلتى أمام كاروزو ؟ أنا التى آخذ فى الليلة دولارين اثنين .

الرئيس — (إلى كاروزو) والآن بماذا تدافع عن نفسك ؟

كاروزو — ليست هذه إلا ترهات ، فنى ذلك اليوم لم أكن فى الأوبرا ولم أغن قط فى رواية ولكرى ولا فى أية رواية أخرى من روايات فاجر ، إن هذه الفتاة قد جاء بها أعدائى .

الشاهدة — إنه كاذب . إن أربعاً من زميلاتى يستطعن الشهادة مثلى بأنك تأتى إلى التياترو دون أن يكون لك دور وأنك تتردد خاصة فى الليالى التى يرتدى فيها بنات الكورس والراقصات أزياء قصيرة جدا .

وشهدت أربع فتيات أخريات فى مثل جمال صاحبتهن ، بنفس المعنى ، ثم تتابع على المحكمة (ضحايا حديقة الحيوان) فشهد أكثر من عشرين سيدة ضد كاروزو ، وما من شهادة نفى واحدة .

وكانت لحظة مشهودة عند ما جاء الحاجب (بالمضبوطات) وهى الحرملة السوداء المشهورة فأمسك بها النائب نفسه وقلب

جيوبها وأظهر للمحكمة الفتحات التى تمكن لصاحبها أن يمر بيديه منها دون أن يفطن إليه أحد ، واعترف كاروزو بأن الحرملة له (ولكنى لا أستعملها فى غير الوقاية من البرد) ووقف النائب وقال فى مرافعته : إنى أصر على عقاب مثالى يحكم به على هذا المتهم . فإن بلادنا يجب أن تطهر من كل الأجانب الذين يفسدون جوها . وهذا الإيطالى مثل حى على ذلك ، ولا بد لنا من نفيه وإبعاده فنحن لا نريد بيننا هؤلاء الرقعاء الذين يدنسون بلادنا بآثامهم . إن سلامنا الاجتماعى يتوقف على ذلك .

كيف يمكننا أن نطمئن على زوجاتنا وأخواتنا وبناتنا إذا كن تحت رحمة هذه الحيوانات البشرية ذات الغرائز الشاذة ؟ تقولون إن هذا الرجل أعظم مغن فى الدنيا ، إن هذه الصفة لا شأن لها هنا ولا قيمة . أما ما له وزن وله قدر وله خطر على تقاليدنا وعلى عاداتنا وعلى مجتمعنا فوجوده هو وأمثاله مما يعد تهديداً صريحاً وتحدياً لنا .

وتميزت مرافعة الدفاع بالبساطة والسماحة التى تتعارض مع بلاغة الاتهام : إن فنه يسحر الجماهير وإن عدد المعجبين به يأبى الحصر . وفى كل يوم تأتيه ألوف الرسائل لتعوض عليه جهده الذى يبذله فى خدمة الفن . إن مثل هذا الرجل نافع لمجتمعنا .



كاروزو فى دور « شمشون »

ولا غرو إذا كتبت إليه المعجبات العاشقات ، من العاملة فى متجرها والصانعة فى مصنعها ، إلى السيدة الكبيرة فى قصرها ، هن جميعاً عند قدميه يقدمن إليه ما يملكن . واحدة تقدم قلبها وحبها ، والأخرى حلمها أو مالها ، فماذا يحوجه أو يضطره إلى هذا العبث الذى لا متعة فيه ، عبث التلاميذ أو الغلمان أو المحرومين ، عبث غير جدير بعبقريته ولا لائق بشهرته .

إن الواجب اليوم هو الخفض من حدة هذه الحملة الهوجاء باسم الأخلاق ، المقصودة قطعاً والتى لا تخدع أحداً عند ما تدعى الكلام باسم الحضارة واسم الثقافة ، وليس للحضارة ولا للثقافة من حاجة إلى مثل هؤلاء المترافعين المتحمسين .

واكتفت المحكمة بأن حكمت عليه حكم مبدأ بغرامة دولار واحد « للفعل الفاضح » وبرأته من بقية التهم . لكن الغرامة بلغت فى الواقع أربعة وثلاثين ألف دولار .

وظلت أسطورة قفص القرود سنين طويلة حديث الناس وظلت شبحاً أسود يتبع كاروزو كظله وسيفاً مصلتاً على عنقه .

٩ — الحب

إنه الآن قد جاوز الأربعين وقد آثر العزلة وظللت حياته سحابة سوداء ولم يقبل إلا دعوات قليلة هاربا من الدنيا وملاهيها ، ومغانيها مكرساً أكثر وقت لمجموعاته النادرة من الصور واللوحات والتحف والأثاث .

لكنه كان سيجىء إلى هذه الحفلة التى يقيمها المايسترو تنارا الفنان الإيطالى وقد رزقه الله ولداً وسأل كاروزو أن يكون عرابه . وكان كاروزو فى طريقه إلى الحفلة يتساءل : « الآن وقد جاوزت الأربعين . ماذا يمكن أن يحمل إلى المستقبل فيما بعد ذلك من السنين ، حقاً إن المجد عزاء عظيم وإن رعود التصفيق تخفت أحياناً شكوى الفؤاد ولكن هناك جروحاً لا تندمل ، ماذا أنتظر من المجد وقد بلغت ذروته ؟ . ومن الحياة وقد تلقيت جميع عطاياها ، ومن القلب وقد انكسر؟ ... »

غير أن شيئاً خفياً شرح صدره ، كأن يداً سحرية قد أزاحت الستار عن نافذة فى غرفة مظلمة فدخلها النور . فتساءل عما أصابه وعن سر الانشراح المباغت ، ودخل الحفلة فقابلوه

بالتهنئة فقد كانت تجمع خلاصة الجالية الإيطالية فى نيويورك . ومن ذا الذى يستطيع أن يرفض دعوة تنارا رئيس أوركسترا المتروبوليتان ؟ وكانوا جميعاً فخورين برؤية كاروزو بينهم فإن ملك الغناء فى العالم هو ابن بلدهم .

وإذا بصورة تظهر فجأة بإطار الباب ، صورة رشيقة ، صورة فتاة عمرها لا يتجاوز سبعة عشر ربيعاً . صورة فتاة هيفاء فرعاء مذهلة تكاد تكون رؤيا . وكانت فى ثوب من الحرير البنفسجى الباهت يضم خصرها الزاهن حزام عريض ، وكان شعرها أشقر كلون سنابل القمح ، وعيناها الرائعتان ملونتان بلون البنفسج .

تحفظ كاروزو كما لو كان قد سحر ، وسمر فى مكانه فلم يستطع أن يسترد منها نظرته واقتربت الفتاة وتقدم منها خطوتين مجذوباً بهذا المغناطيس الذى لا يقاوم .

وكذلك كانت هى تنظر إليه . ما هى تلك الطلاسم التى ربطت بغتة هذين المخلوقين ؟ أية قوة فوق الطبيعة قد ساقت كليهما نحو الآخر . ولما قدموه إليها لم تسمع حتى الاسم فقد كانت فى عالم آخر ، وتصافحت منهما اليدان ووقفا متواجهين صامتين ذلك الصمت اللذيذ الذى لا يلبث إلا بضع دقائق ويغير وجه العالم ... وافترقت يداهما غير أن نظراتهما لم تفترق .

ولاحظ بعض المدعوين ما أصاب البطل من دوار فأفسحوا لهما المجال ...

* * *

ــ ما اسمك ؟

ــ دوروتى ...

ــ دوروتى ! ما أجمل هذا الاسم على ...

إن كاروزو العظيم ، ذلك الرجل ذا الغزوات التى لا عداد لها قد وقف أمام هذه الطفلة متأثراً مرتعشاً كتلميذ خجول .

هل وقع فى الحب دون جوان ؟ ... لقد ضاع منه الكلام مع أن لديه منه الكثير . ولكن فيم الكلام ؟ فى الحب وكل قول فى الحب نافلة .

ثم لم يلبث أن نشأ ضرب من الحرج عن تأثرهما الأخرس وجاءتهما لحسن الحظ نجدة فى شكل سيدة عجوز شاب شعرها ، وهى فى سواد شامل ، وحيت كاروزو بالإيطالية فقدمتها الفتاة إليه :

ــ عمتى .. وقد ولدت فى فلورنسا ، وهذا هو السر فى أننا نعرف كثيراً من الطليان المقيمين فى نيويورك .

وكأنى بكاروزو لم يفهم شيئاً من هذا كله فحيا السيدة العجوز التى بلغت السبعين باللغة الإنجليزية ثم لم يلبث أن

أدرك أنها تدعوه إلى الغداء فى اليوم التالى ، فسرته تلك الفرصة التى لم يكن يؤملها لرؤية دوروتى ، وشكر السيدة . ثم التفت إلى الفتاة قائلا :

ـ إذن ... سوف أراك .

فأشارت دوروتى بالموافقة وهى مرحة سعيدة :

ـ سوف يرى بعضنا بعضاً .

كان والد دوروتى يدعى بنجامان من أصحاب الملايين ، الملايين العديدة ، وكان قصره يستقبل أشهر الرجال مثل رئيس الولايات المتحدة والعالم ماركونى وأكبر القواد والوزراء والكتاب . وهو اليوم يستقبل ملك الغناء . جيش مجند من الخدم يعد المعدات ويفتن فى ألوان الطعام الإيطالية خاصة .

وكانت دوروتى تضع فى كل مكان زهوراً ، ما أشد فرحها إنها تغنى أغنية إيطالية قديمة تعلمتها من عمتها . ولا يلبث كاروزو أن يصل فى خلال نصف الساعة . إن القلب ذا السبعة عشر ربيعاً يخفق من ذكرى العينين العميقتين السوداوين. إن نظرة المحبوب فيها لمحة من الكآبة أشد ما تكون تأثيراً ... إنها لم تجسر أمس أن تحدث كاروزو عن الحزن الذى تتوسمه فيه ، ثم ندمت لأنها لم تفهم ... لتحاول أن تواسى ذلك الحزن الكظيم ، فقد رأت فى ذلك رسالتها .

لكن أو لا يكفى حبها بكل جوارحها لطرد الأفكار السوداء عن جبينه العريض ؟

لشد ما تحبه ... لشد ما سوف تحبه ... بيد أنها لا تحبه لأنه ذلك الرجل العظيم الذى تصفق له أربعة أنحاء الكون. لا... ليس لهذا السبب .

إن دوروتى فتاة صادقة بسيطة . غاية فى البراءة . أبوها تاجر وقد عاشت بين الفلاحين وهى لا تشبه فى شىء بنات أصحاب الملايين المتكبرات المتعجرفات غير القانعات أبداً ، المفتونات زعماً منهن أن كل ما فى الأرض من كنوز وبدع إنما خلق من أجلهن وحدهن .

وكذلك كان أبوها بنجامان يختلف عن أمثاله من أصحاب الملايين الذين يقضون نصف حياتهم فى صيد الدولار ، لم يكن رجل إحصاء وأرقام ومضاربة ، بل كان رجلا حساساً يحب الجمال والفن والفنانين ، ويريد أن يزيد فى كل يوم معينه من الثقافة ، بيد أن هذا ليس معناه أنه يثق بأهل الفن فهو يحذر بالغريزة « من هؤلاء الناس » ويخشاهم ويشك أحياناً فى نفعهم للمجتمع ، وربما كان هذا الشعور موروثاً عن أسلافه الأمريكان القدماء ، أولئك المجاهدين المثابرين الذين

فلحوا الأرض أو جعلوا عاليها سافلها بحثاً عن كنوزها بعرق الجبين .

وكان كاروزو قد لاحظ مكانته من الفتاة ، غير أنه لم يجرؤ على أن يؤمل حباً متبادلا وارتاب فى أن هناء مثل هذا يكون فى الإمكان ، فهو يعرف نصيب الرجل الذى تجاوز الأربعين . إن للشباب أمانيه التى قد تكون أحياناً شريرة قاسية ، والتى يجب على الرجل إذا ما جاوز سنه أن يحذرها ...

وبذل كاروزو جهداً فى العناية بثيابه وزينته إلى درجة أن تعدد ألوانها صار مضحكاً وعند ما دخل بها لفت الأنظار إلى شذوذها وتنافرها ، وراح مستر بنجامان يرحب به ويكلمه ويشرب معه ويقدم إليه السيجار الضخم بينا كاروزو يستمع بأذن واحدة ويبحث بعينيه وأذنه الأخرى عن دوروتى ، ولعل هذا هو السبب فى أنه لم يلحظ ما فى لهجة مضيفه ، على رقته ، من التعالى ، فقد كان المالى الكبير يفكر فى صميمه قائلا : « إنى أعلم أنك كمغن لا نظير لك فى العالم ، وأن صوتك يساوى ذهباً بيد أنك يا صاحبى الصغير لست عندى رجلا له قيمة ، فلعلك لو لم تكن تحسن الغناء إلى هذا الحد لما عرفت كيف تكسب دانقاً ، ولما وجدت قوت يومك . »

وود كاروزو لو عرف رأى دوروتى فى ثيابه ، وهى بذلة

رمادية صدرها من القطيفة وسروالها ضيق ، وجواربها بيضاء وحذاؤها أسود لامع ، وعلى الكتفين حرملة فضفاضة ، لكن مستر بنجامان هو الذى أبدى رأيه :

ـ سواء كان هذا هو زى المسرح ، أو كان زياً مدنياً ، فهو لائق بك ، وأنتم وحدكم الذين تسمحون لأنفسكم بمثل هذا الشذوذ .

أما دوروتى فقد كانت مضطرة إلى التنقل بعيدة عنه لتؤدى واجباتها كسيدة بيت . وتحدث الأب مع كاروزو فى الأدب وسأله عن المؤلف الذى يحبه فأجابه « ادجار بو » وحذر أن يقول له إنه لا يعرف سواه ، فسر الرجل الثرى بهذا الاسم وقال :

ـ لقد عرفته فى طفولتى فقد كان أبى بارك بيجمان يدعوه عندنا ويعجب ببراعته الفائقة وكان أيضاً يقرضه النقود .

وأخيراً خلا كاروزو بدوروتى فقالت الفتاة :

ـ أتعرف أننى قد رأيتك منذ خمس سنين ؟ .

ـ أحقاً ؟ أين ؟

ـ فى المتروبوليتان ، فى رواية عايدة وكنت أنت فى ثوبك المصرى العسكرى المدهش ولما أبلغ الثانية عشرة . فتصور لقد كان لك فىّ تأثير شديد جداً ...

ثم غضت من بصرها واحمر وجهها كتلميذة صغيرة ، وكان لا يمكن أن يقاوم حسنها وفتنتها فاقترب منها وأمسك بيديها :

– يا حبيبتى ...

ولم يقل إلا هذه الكلمة ، لقد وضع فيها قلبه كله ، فإن هذه الكلمة أكثر من بوح واعتراف . إنها كانت بمثابة عهد وقسم .

وكان ردها عليه رعشة خفيفة من يدها ...

١٠ – إنى أحبه

وقف الأب والبنت وجها لوجه ، وكان المليونير يقول : إن هذا جنون فى جنون ، وكانت دوروتى تجيبه دائماً بالكلمة الخالدة « إنى أحبه »

– إنك لست إلا طفلة ، اذكرى أنه أكبر منك بخمسة وعشرين عاماً .

– إنى أحبه ...

– إنه فنان وليس لك فى حياته مكان .

– إنى أحبه ...

– إنه سيضحى بك دائماً على مذبح فنه .

– إنى أحبه ...



كاروزو فى بذلة الخطوبة ...

– إن تقاليدنا تعارض هذا الزواج ، فهو من أسرة وضيعة . أما أسلافنا نحن فقد كانوا بين الذين أسسوا نيويورك وكلهم سادة.

– إنى أحبه ...

– إنك يا صغيرتى عنيدة عمياء . أواه لو كانت أمك على قيد الحياة .

– إنها كانت ترضى . كان يكفى أن تستمع إلى إذ أقول لها : « إنى أحبه » .

– هيهات أن يكون المغنى المجيد زوجاً مجيداً ... ثم إنى أمنعك منعاً قاطعاً من لقائه .

ثم نهض ليغادر الحجرة بحركة عصبية وعند عتبة الباب التفت نحوها قائلا بصوت يرتجف غضباً :

– إنك لن تريه بعد الآن ... إنه لن يضع قدميه هنا أبداً...

* * *

وقام التليفون مقام اللقاء ، وظلا فيه يتبادلان العواطف ... تروى له ما أصابها من أبيها وهو يعزيها ويشجعها ويغنى لها ، واستقر رأيهما على الزواج إن طوعاً وإن كرهاً ، لكنها سألته أن يحاول مرة أخرى التأثير فى أبيها فإذا أصر على الرفض فسوف تتزوجه ...

وأعلن الخادم حضور كاروزو ، وكان ذلك بعد الغداء ،

والمليونير فى مكتبته فى مقعد كبير وثير من القطيفة الخضراء وفى فمه سيجار وعلى ركبتيه كتاب ضخم ، فقطب جبينه قائلا : «كاروزو هنا؟ أولم أبعث إليه بأننى لا أسمح بدخوله هذا البيت! ماذا يريد بعد ؟ دعه يدخل »

ولم يلبث أن لاحظ الشحوب فى وجه كاروزو فرجاه أن يجلس ووضع أمامه بحركة آلية صندوق السيجار الفاخر :

– ماذا ؟ فى خدمتك يا سيدى .

– لا بد أنك تعرف يا سيدى الغرض من زيارتى .

– إنى أعرف ولا أسمح لك بيد ابنتى .

* * *

وفى صباح اليوم التالى خطف دوروتى . كانا قد تواعدا على اللقاء أمام الفندق الذى ينزل فيه فوصلت فى الموعد المحدد ، فى ثوب السفر الأزرق القاتم ، وكان هو فى ثوب أسود مصحوباً بصديقين فركبوا سيارة إلى دار البلدية ليستخرجوا التصريح بالزواج ، وكانت دوروتى فى السيارة ترتجف وتلتصق بكاروزو وعيناها الزرقاوان النجلاوان تعبران عن خوفها فما كان أشبهها بغزالة أصابها بالسهم صيادها ...

وكان المستشار اسكالى رئيس مكتب الزواج المدنى لا يعرف

كاروزو ، فسأله السؤال الرسمى :

– ما صناعتك ؟

فأخذ كاروزو على غرة وأجاب مسائلا : « صنعتى ؟ »

– أجل من أين تأكل خبزك ؟

– ولكن ... ولكن ... إنى ... أغنى ... وهذا كل ما أفعله ...

ثم قصدوا كنيسة كوليبجيت الواقعة على ناصية الشارع الخامس والشارع التاسع والعشرين ، وما هكذا كانت دوروتى تتخيل زواجها . إنها كانت تحلم بثوب طويل ، ذيله لا ينتهى تحمله البنات الصغيرات وعلى رأسها تاج من أزهار البرتقال .

أما أن تتزوج هكذا بلا احتفال وفى ثوب السفر وتتزوج سرا وهى موزعة خوفاً ، فياله من شىء عجاب !

وتمتم القس بعض عبارات البركة بلا اكتراث ، وانتهى كل شىء وعادوا إلى السيارة ، واضطر كاروزو إلى المرور على الاستديو حيث كانوا يعرضون فلمه الأخير . وعند ما عادا وجدا شقتهما مختنقة بالزهور ، وفى كل دقيقة كان التليفون يدق ويصعد غلام حاملا أكداساً من البرقيات . وبعد ساعتين علمت نيويورك كلها بزواج كاروزو . فأقبلت فرقة من الصحفيين ومصورى الصحف فغزت الفندق تتبعها فرق من

المستطلعين والمعجبين والمتطفلين .

وكان الشخص الوحيد الذى ينتظرون حضوره من صميم نفوسهم هو والد العروس ... لكنه لم يحضر .

* * *

– إنى أبرأ من ابنتى ولا أريد أن أراها ، ولا أريد أن أعرف عنها شيئاً . إنى لن أغفر لها أبداً أنها تزوجت ذلك الرقيع !!

فانكسر قلب دوروثى وهى تقرأ تصريحات أبيها هذه فى الصحف . ذلك أن المستر بنجامان قد أفضى بدفائن قلبه الحاقد لمندوبى الصحف الذين كان يسعدهم التدخل فى الحياة العائلية .

وكان كاروزو يطمئنها ويمنيها بأن والدها سوف يغفر .

وكانت شقتهما مكونة من غرفة نوم ، وحمام ، ومكتب ، وصالون ، وقاعة طعام ، غير غرفة مخصصة لسكرتيره وخادم له وخادمة لزوجته . وقد فرشها كاروزو بأجمل الرياش وأفخر الأثاث ، فجعلها آية مدهشة . وكانا يضطران إلى الخروج من البيت من باب الخدم تجنباً للجماهير المتربصة دائماً أمام الفندق لتلمحهما . ولم تهدأ هذه الزحمة إلا بعد أيام عدة ، وكانا لا يسيران فى طريق حتى يتلقيا فى وجهيهما مصابيح المغنسيوم التى تنقل صورهما إلى صحف نيويورك الكبرى وقد جندت وراءهما

جيوشاً من مصوريها . وضاقت دوروثى ، الخجول المتحفظة بطبيعتها ، ضاقت ذرعاً بأن تكون هدف هذه الدعابات المتوالية ، وكانت تتعجل مغادرة المدينة الكبرى لتعتزل هى وزوجها فى ركن مجهول من الأرض لا ضجيج فيه ولا عجيج حتى تخلو آخر الأمر بالرجل المحبوب .

١١ — الرجل والعبقرى

شخصان فى شخص

كان كاروزو شخصيا مكوناً من جزأين : الرجل ، والعبقرى . وكانت زوجته تؤول تصرفاته ودوافعه طبقاً لما يتراءى لها ، فى ساعتها ، من هذا الجزء أو ذاك ... وكانت إذا اختلط الأمر عليها لحظة فلم تعرف كيف تميز أى الجزأين هو الذى يتصرف إزاءها أحاطت بها الحيرة وتنازعها التخبط .

وكانت غيرته ، مثلا ، تدهشها مع أنه قد نبهها عند زواجها إلى أنه غيور أقرب إلى الشرقى منه إلى الغربى ... أليس هو من أهل حوض البحر الأبيض المتوسط ؟

— ليس لك أن تخاطبى أى رجل عند ما لا أكون معك ...

– حتى ولو كان من أصدقاء أخى ؟
– حتى ولو كان شقيقك نفسه ! ... لأنه إذا رآك أحد تخاطبين رجلا غير زوجك فمن أدراه أن هذا الرجل صديق شقيقك ، أو حتى شقيقك ؟ !

ولقد بدا لها هذا الطلب غير معقول ، وهذا الحكم جائراً ... بيد أنها كانت فرصة أخرى لها تؤدى له فيها ما يطيب له ، ولا تخرج عن طاعته .

* * *

الغـــــيرة

وقبل أن نبحر إلى إيطاليا ، وكنا فى فصل الربيع ، ذهبنا مع فرقة أوبرا المتروبوليتان ، إلى أتلنتا .

وبعد ما قام أنريكو بدوره فى الليلة الأولى ، دعانا صديقان له ، لم أكن لقيتهما من قبل ، إلى العشاء والرقص . وكان الليل دافئاً ، لذيذاً ، شائقاً ، وقد نثرت الموائد حول حلبة الرقص ، تحت أشجار علقت فى أغصانها المصابيح . فجلسنا فى أبعد مائدة منعزلة ، مع مضيفنا جم ، وهو رجل طويل عريض مرح ، وزوجته فانى ماى الفتانة ، الأشد منه مرحاً .

ورأيت أن كليهما يعبد زوجى عبادة . وبعد العشاء ، عند ما بدأت الفرقة الموسيقية تعزف ، شعرت برغبة فجائية فى البكاء ، وانتابنى ضيق شديد ، وساءلت نفسى فى قنوط : « ماذا ترانى أصنع هنا ؟ بين هؤلاء الناس جميعاً ، هؤلاء الذين لم أرهم من قبل ، وهم يحدقون فى ، ويبسمون لى ، لمجرد أننى متزوجة من أعظم مغن فى العالم ؟ »

وفى تلك اللحظة ، سألنى أنريكو أن أرقص ، فنظرت إليه ورفضت . لقد أصبح هو نفسه غريباً عنى أيضاً فى تلك اللحظة . فقال : « لا بأس فيما بعد . وأنت يا فانى ماى ؟ »

فهبت واقفة ورقصا معاً . ولاحظتهما وهما يرقصان وحدهما فى الحلبة . ولكن عند ما نزلت أزواج أخرى من الراقصين ، أحسست بأن خجلى قد زال عنى ، وشعرت بأننى عدت طبيعية ، سعيدة مرة أخرى . فسألنى مضيفى « چم » أن أرقص ، وقبلت فى الحال . وعند ما درنا فى الحلبة ورآنا أنريكو ، وقد اقتربنا منه ، قال لى :

— أريد مخاطبتك عند ما تنتهين .

ورأيته ينتظرنى على المائدة ، فقال :

— والآن فلنعد إلى البيت .

فاعترضت قائلة :

– ولكن يا أنريكو ، إنك لا ترضى أن تسيء هكذا إلى فانى ماى .

– دعى هذا لى ، فأنا الذى أقرر . والآن خذى معطفك !

فحرت فى هذا اللغز المعمى . ولما عدنا إلى الفندق ، ثار ثائره وصاح غاضباً :

– ماذا أصابك حتى ترقصين مع ذلك الرجل ، بعد ما رفضت الرقص معى ؟ لماذا صنعت هذا الشيء مع ذلك الرجل الغليظ ؟ .

– لكن يا أنريكو إنه صديقك ومضيفنا !

– إن من تفعلين معه مثل هذا ، لا يكون صديقى . ليس لى أصدقاء . وأنا ... ؟ أأكون لا شيء ؟ ألست أهمك ، بحيث لا تعنين إلا بالمضيف ؟

وكان يصيح بذلك صياحاً . وحاولت أن أفسر له ، غير أنه كان يزداد غضباً ويتميز غيظاً ، مع كل كلمة أنطق بها ، وقال :

– هكذا إذن ! فأنت لا تحبين الزواج من كاروزو !

فأجهشت بالبكاء .

وعندئذ جاء التحول ؛ فإن ثورة الغضب قد اختفت من عينيه ، واغرورقتا بالدموع . وتأوه قائلا :

ـ أواه يا حبيبتى ! ماذا أقول لك ؟ وماذا فعلت بك ؟ أواه ! يالى من رجل ردىء ، إذ جعلتك تنتحبين ! .

ثم هرع إلى حائط الحجرة ، وضرب رأسه فيه ، واخضل وجهه بالدمع ، وتضرج بالدم . وامتزج دمعه ودمه . وتوسلت إليه أن يكف وهو يأبى . وظل يزفر زفرات حرى كالطفل ويقول :

ـ ما أشد أسفى يا دورو ! فهل تعذرين وهل تغفرين ؟ .

فغسلت رأسه المسكين ، وساعدته ليأوى إلى الفراش ، وجلست إلى جانبه ، أدلله وأناجيه :

ـ نم ... نم ... يا حبيبى .

حتى نام . وأدركت بغريزتى أنه لم يكن كاروزو الرجل الذى اندفع فى هذه الغيرة الوحشية ، ولكن كاروزو العبقرى ، الذى تحركه طبيعته ، بنفس القوة الخارقة للعادة ، التى تحرك بها فنه الرفيع .

ولم يشر بعد ذلك أبداً ، إلى تلك الليلة المروعة .

وبعد ذلك بشهور قال لى :

ـ لشد ما أتمنى لو أصبحت سمينة جدا ، حتى لا ينظر مخلوق إليك !

ثم تنهد .

تحديد الهدف

لم يكن أنريكو قد تعلم تعليما منظماً ، غير أن الفطرة السليمة ، والتجارب ، والمحن ، قد اشتركت فى تربيته . وقد عرف أن حياة الناس تكون غنية موفورة ، إذا ما ظلوا ناظرين إلى أنفسهم ، يقومون من اعوجاجها ، بدلا من النظر إلى الآخرين ، يتقولون عليهم ، ويتندرون بهم . لقد عاش ذات حياته ، بلا ضجة ولا جلبة ، متركزاً فيها ، عاكفاً عليها ، منطوياً ، مثابراً ، كادحاً ، لا يعنى بحياة غيره . لقد أمسك حياته بيديه ، فلم تفاجئه حياته ؛ لأنه كان مولياً إياها كل اهتمامه . أما فيما يختص بزملائه من أهل الفن ، فلم يكن يمدح ، ولم يكن يقدح ، وما آثر غناء أحدهم على الآخر . كان مشغولا بعمله شغلا شاملا كاملا ، بحيث لم يكن لديه وقت ولا رغبة فى التدخل فى أعمال سواه ، أو التعليق على نجاحهم أو إخفاقهم ، بالتشفى أو الغيرة أو النقد أو التحبيذ . ولم يكن يبذل قواه العصبية الثمينة للاستمتاع بفنه ، وإنما كان يستخدمها ليزيد من حيويته وقدرته الهائلة على العمل . وهذا التفانى فى التمرين العملى للاحتفاظ بمكانته ، قد جعله لا يكترث

بفنون غيره ، من كبار رجال الفن . لم يكن يعمل عملهم ، إذ يدعون أصحابهم ليغنوا لهم ساعات ، أو يعزفوا لهم الموسيقى ، كما يستغرق الأطفال فى اللعب .

كان كاروزو لا يبذر فى وقته ، ولا فى جهده ، ولا فى عصبه ؛ ولذلك أيضاً لم يكن شديد المرح .

كان يعيش لا للمحافظة على صوته ، بل للمحافظة على حياته . وكان يدخر فى ظل الصمت حيويته ، وكان يستعيد فى ظل السكون قواه المبددة فى الغناء . وكانت الحياة الزوجية ملجأ له ، يتوافر فيها السكون والهدوء اللازمان له ، لزوم الماء للبستان . ولم يكن زواج صبية صغيرة من هذا الرجل الناضج المجرب ، من هينات الأمور . إن مشاركتها فى حياته كانت كفيلة بأن تحرمها الكثير من لذات الشباب ، وأن تقضى عليها بالكثير من الحرمان .

لقد كان ينبوع وجوده كائناً فى ذات نفسه . وكان ذلك مظهراً صادقاً لحياته الصميمة ، حتى فى الغناء . فمنذ صباه الباكر ، وهو يغنى كما تصدح الطيور دون تعليم ، مستمدا غناءه من قلبه . وكذلك لم يكن يعتمد على نصائح غيره ، أو على إغراقهم فى مدحه ؛ أو على محاولة الإيحاء له ، لأنه كان يعلم أن ينبوعه وحيد ، هو فى ذات نفسه . لقد ولد وله صوت ،

فجعله بمثابرته ويقظته وشجاعته ، صوتاً عظيما . ودفعه تحديد هدفه إلى بلوغ ذروة الكمال . فقد كان صوته هو الأداة التى يريد تكميلها . وعلى ذلك عرف معين قوته ، ومصدر موهبته ، وأشعل بيده نار عبقريته . وتلك عبقرية أخرى .

عبودية الفن

لم يكن أنريكو يتحدث قط عن نفسه « بوصفه أعظم مغن فى العالم » . لم يكن يفخر بهذا ، لكنه ويا للعجب كان يفخر بأنه وجد فى حلبة سباق الخيل حصاناً أطاق عليه اسمه ، ويرى فى هذا ثناء أعظم من كل ثناء على صوته !

ولم يكن يفهم شيئاً مطلقاً فى سباق الخيل ، لكنه كان فى كل يوم يبحث فى قوائم السباق عن أنباء الحصان سميه « أنريكو كاروزو » !! وكان يتتبع تطورات هذا الحصان بشغف شديد واهتمام بالغ ، وإن لم يكسب سباقاً واحداً ! . غير أنه كان مع ذلك يراهن عليه ، فى كل مرة يجرى فيها ، بعشرة دولارات ! .

لم يكن أنريكو يميز آيات صوته الرخيم عند ما يغنى . وكان كل ما يشعر به ، هو مجرد انسجام من النغمات المتصاعدة

من صدره . وكان إذا ما سمع اسطواناته اكتفى بقوله فى دهشة : « لا بأس إنه صوت جميل » . ثم لا يلبث أن يضيف دائماً إلى ذلك بشىء من الحزن : « ليس من الصعب العسير الوصول إلى القمة بصوت جميل ، لكن العسير الصعب هو البقاء فى القمة » .

ولقد تحققت أن ذلك كان أكثر من صعب ومن عسير . إنه كان ضرباً من العبودية . فكلما أبدع فى الغناء ازدادت الجماهير غلوا ، طالبين منه المزيد . وهو ليس فى حل من أن ينزل طوعاً عن مستواه الرفيع . كان ينبغى له أن يظل محلقا فوق الطبيعة البشرية . ولم يعد يغنى لأنه يحب الغناء ، ولكن لأنه شىء واجب الأداء . وإذ كان رجلا يحب الكمال ، فإنه لم يكن راضياً عن نفسه . كان يعلم أن هناك ما هو فوق الكمال الذى يبدعه . ولقد رأيته يجىء البيت للعشاء ، بعد ليلة رائعة من لياليه الغر ، ويجلس إلى المائدة ليتعشى ، فلا يستطيع أن يذوق طعاماً . وأراه وقد امتلأت عيناه بالعبرات ، فأسأله عما به ، فيبسط لى راحة يده قائلا :

– رماد وقبض الريح !

فأحتج على يأسه قائلة :

– لكنك بلغت منزلة الأرباب الخالدين . أو لم يرفع الستار

خمس عشرة مرة ، بناء على طلب الجماهير التى مزقت أيديها بالتصفيق ؟ ! .

وكان من أجل ذلك يبكى . كان يريد أن يبقى هكذا فى الذروة العليا ، وكان يخشى السقوط . ولما كنت أدرك هذه الأشياء التى هى فوق مستوى الألفاظ والكلمات ، كنت ألزم الصمت . وكان يجد فى صمتى الراحة والعزاء .

حنان

قالت زوجته دوروثى :

« كان الفرق بين حياتى كفتاة فى بيت أبيها ، وحياتى كسيدة متزوجة أعظم مغن فى العالم ، كالفرق بين جمد القطب الشمالى وحرارة خط الاستواء . قضيت شهوراً عديدة قبل أن أتعود عليها ، وأعدها أمراً واقعاً . وكما أننى كنت قد تعودت تربية أبى الصارمة ، كذلك تقبلت من زوجى – دون وعى منى – أن يعاملنى بنفس الطريقة الصارمة ، عند ما أرتكب خطأ . لكن قبلما يمضى على زواجى أسبوع واحد ، وقع حادثان دلانى على مبلغ الفرق العظيم ، بين عالم الأبوة القديم ، وعالم الزوجية الجديد .

فقد حدث بعد ظهر أحد الأيام ، والحر شديد ، أن كنت أتأهب للاستحمام ، عند ما نادانى أنريكو ، فأسرعت إلى مكتبه ، فقدم إلى علبة ذهبية صغيرة ، تحتوى على أول دفتر شيكات باسمى ، ومعه كشف بإيداع خمسة آلاف دولار . فبلغ من حيرتى أمام شيء لا عهد لى به ، أن أرتج على ، فلم أعرف ماذا أقول أكثر مما كنت أقوله لو أن أبى أعطانى دولاراً واحداً . قلت :

— شكراً لك ، سأحاول أن أكون شديدة الحرص ، حتى يدوم هذا المال طويلا ، وطويلا جدا .

فبادر أنريكو يقول :

— لكن يا دورو ، هذا مالا ينبغى لك ؛ فقد جعل المال لكى تستمتعى به . وبعد ما استفقت من نشوتى ، عدت إلى غرفتى فرأيت وأنا مارة بالصالون مجرى من الماء ينساب من تحت باب غرفة نومى ، التى كانت متصلة بالحمام . فصحت جزعاً . ووجدت حجرتى كالبحيرة ، والحمام كشلالات نياجرا ! واندفعت أقفل حنفية الماء ، ثم نظرت برعب إلى الخسائر التى أحدثتها . ولم يكن من حياة إلا الاعتراف لزوجى ، بأننى قد غفلت إلى حد أن أتلف الماء سجادة نفيسة ، وأن الماء فاض من الشقة إلى الغرف التى تحتها ، وكان هذا كله فى

الوقت الذى منحنى فيه علبة ذهبية جميلة وخمسة آلاف دولار !
وبالطبع خطر لى أنه سيسترد عطيته ، ويغضب غضبة شديدة ، ويخاصمنى أسابيع . فجلست وقدماى فى الماء ، وانخرطت فى البكاء . وإذا به يجىء إلى الباب ، ويقف هنيهة ، وينظر إلى محنتى ، ثم يخوض فى الغرفة ويقبلنى ، ثم يقول :

ـ لا ! لا ! يا دورو ! لا تبتئسى ! فإن هذا لا يستحق الذكر . وسنبدل السجادة ، ونصلح كل شىء . لكن رجائى ألا تنظرى إلى أبداً بعد اليوم ، بمثل هذا الخوف ... فإنى لا أحب أن تخافى أو تحزنى ...

* * *

وقصدنا مرة جوهريا ، يسأله عن كيس ذهبى كان سيهديه إلى إحدى صديقاتنا . وبينما هو يفحص الأكياس المتعددة ، التى قدمها الرجل إليه ، إذا بى أرى سلسلة جميلة من البلاتين تصلح للساعة الى أحضرها لى هدية من هاقانا . وعند ما لحقته وجدته قد اختار حقيبة جميلة مرصعة بالجواهر والزفير . وقال لى :

ـ هل تروقك هذه ؟

فأجبته قائلة :

ـ لا بد أن مسز « ه » ستسر جدا بها ؛ فإنها رائعة حقا .

ثم استطردت قائلة :

– أنريكو ... لقد رأيت منذ هنيهة سلسلة رائعة تصلح لساعتى ، فهل أستطيع أن آخذها ؟ إن ثمنها مائة دولار .

فنظر إلى برهة قبل أن يجيب ثم قال :

– دورو ، يا عزيزتى ! إنك تعلمين أننى لم أغن طوال هذا الشتاء ، ونحن فى حاجة إلى نفقات كثيرة . لقد دفعت إلى الطبيب ...

ولم أدعه يتم كلامه ، إذ شعرت بخجل عظيم ، فأسرعت قائلة :

– إننى لست فى حاجة إلى هذه السلسلة . وشريطة سوداء تكون حتما أجمل منها . فهلا تناسيت طلبى هذا ؟

وشعرت باحتقار شديد لنفسى ، وكرهت أنانيتى التى أنستنى تلك الحسابات الكبيرة التى كان عليه أن يسددها . وأسرعت إلى العربة أنتظر أوبته .

وعند ما عاد قال لى :

– سنتنزه قليلا .

وحينما وصلنا إلى الحديقة ، أخرج من جيبه صندوقاً ، وقال لى وهو يضعه فى يدى :

– عندى هدية لك .

ولدهشتى الشديدة ، وجدت أن الهدية لم تكن سوى تلك



كاروزو في « مانون »

السلسلة التى طلبتها منه . ولما لاحظ ارتباكى قال لى :

– إنى أقدم لك هذه ؛ لأنها أول شيء طلبته منى .

ثم ناولنى بعد ذلك صندوقاً آخر قائلا :

– وهذا أيضاً لأنك سألتنى ما أردت برقة وحنان وحياء .

وكان خاتماً به جوهرة ثمينة !

ولم أستطع إلا أن آخذ يده ، فى قفازها الأصفر ، وأقربها من وجهى ، وأضعها على خدى ؛ إذ حاولت شكره فلم تسعفنى الكلمات ، لأن ما فعله كان فوق ما أستطيع التعبير عنه ...

حكمة القدر

ولنستمع مرة أخرى إلى زوجته :

« ... وبدأ يقترب أول فراق بيننا . فقد كان عليه أن يسافر إلى المكسيك ، لإحياء موسم الأوبرا ، بأجر هو أعلى ما دفع لمغن حتى الآن ... كان خمسة عشر ألف دولار فى الليلة . كان عليه أن يغنى مرتين فى الأسبوع . ولم أكن أستطيع أن أصحبه ؛ لأننى كنت أتوقع مولد طفل فى خلال ثلاثة أشهر . ولم أكن شقية لحرمانى من التخلى عنه والبقاء بمفردى فحسب ، لكننى كنت شديدة القلق على

صحته أيضاً . فإن أوجاع الرأس ، التى كان يشكو منها كثيرا ، فى السنوات الأخيرة ، قد زادت واشتدت . ولقد سمعته فى العام الماضى يغنى أوبرا بعد أوبرا ، فى حين كان رأسه يكاد ينفجر . ومع أن مساعديه زيراتو وماريو يعرفان وسائل العناية به فى هذه النوبات غير أنه كان يجد عندى الملجأ الآمن من ألمه وخوفه .

وبعد ظهر أحد الأيام ، والبيت مقلوب رأساً على عقب ، استعدادا للرحلة ، جاء إلى الصالون ، وجلس إلى جانبى ، وقال :

– لقد اتخذت خادماً جديداً ، وسآخذه معى إلى المكسيك.

فسألته بلهفة :

– من يكون ؟ وهل تعرفه ؟

فأجاب فى أناة :

– أجل أعرفه . وقد جاء يسألنى عملا هذا الصباح ، فقلت له إنه إذا أراد أن يكون خادماً لى ، فإنه يستطيع البقاء . وإليك حكايته :

فعند ما كنت فتيا ، أؤدى خدمتى العسكرية فى نابولى ، أردت أن أدرس فن الغناء . فساعدنى ضابطى على لقاء المايسترو ڤرجين ، وكان معلماً عظيما ، فاستمع إلى غنائى ، ثم قال : « إن لك صوتاً كأزيز الريح فى الشباك » ! فشعرت بيأس شديد . وكان عنده فصل للتلاميذ ، فسألته أن يسمح

لى بالاستماع وهو يعلمهم ، فقبل . وكانت له بنت مخطوبة لأحسن تلاميذه ، وهو شاب يدعى پنزو . وكان پنزو هذا رجلا متعجرفاً غبيا ، لكن المايسترو قال عنه إنه سيكون يوماً ما أعظم مغن فى العالم . وقضيت أوقات فراغى مستمعاً إلى الدروس . وكنت أجلس فى ركن لا يلحظنى فيه أحد . ثم تفضل على شقيقى وتطوع بدلا منى ، للقيام بالخدمة العسكرية. فزادت ساعات دروسى ، وكنت فقيراً جهد الفقر . تحولت سترتى السوداء إلى خضراء ، فاشتريت زجاجة صبغة صغيرة وكنت أدهنها قبل الخروج . وكانت زوجة أبى تصنع لى صدر قمصانى من الورق ، حتى أبدو نظيفاً . وكان على أن أمشى كل يوم ، إلى بيت أستاذ الغناء ، مسافة شاسعة جدا ، فبلى حذائى والأحذية غالية . لذلك رحت أغنى فى الأفراح ، وأرتل فى الجنازات ، لأحصل على قروش معدودة . وأذكر أن أول زوج من الأحذية اشتريته لنفسى ، كان أنيق الشكل ، غير أن نعله من الورق الكرتون ! وبينما كنت فى منتصف الطريق ، إلى بيت المايسترو ، انهمر المطر ، وابتل حذائى الجميل ، فخلعته ووضعته إلى جنب النار ليجف ، فاستدار وانشق وتفتح كفم التمساح . واضطررت أن أعود إلى البيت حافى القدمين !
وفى آخر السنة ، أدى التلاميذ امتحانهم . فسألت المايسترو :

أيسمح لى بمحاولة الامتحان أنا أيضاً ؟ فصاح بى : « كيف ! أأنت لا تزال هنا ؟ » . لكنه سمح لى بالغناء ، فغنيت . فقال : « ليس لك صوت ، لكنك ذكى ، وقد تعلمت شيئاً » .

وحصل لى على عمل صغير ، وكان ذلك فضلا منه على أنا الفتى الفقير . وتزوج پترو من الفتاة ، لكنه لم يصبح شيئاً مذكورا ، وهو الرجل الذى جاء هذا الصباح ... لكنه ما زال متعجرفاً غبيا !

– لكن لماذا إذن استخدمته ؟

– لكى أعلمه كيف يكون وصيفاً طيباً ... وعندئذ يتعلم شيئاً ، وينتهى عهد غباوته !

القرب فى البعد

والآن فلنستمع إلى زوجته ، وهى تتحدث عن افتراقها الأول عنه ، وقد سافر فى رحلة فنية فى أوائل الخريف إلى المكسيك :

« إن وحدتى موحشة لا تطاق ، إنه كان دنياى بأسرها ، ولقد أصبحت من دونه تائهة هائمة على وجهى ، لا ألوى على شىء. لم أعد أجد راحة إلا فى لمس الأشياء التى أحست ملمسه.

لقد أعدت ترتيب ثيابه ، وألصقت صوره فى ألبومات ، ورتبت مجموعة طوابع البريد ، وأصغيت إلى اسطواناته . لقد قال لى فى رسالة : « حاولى أن تتسلى » ، ولذلك دعوت أسرتى للعشاء ولعب البريدج ، لكننى لم ألعب معهم ، بل ذهبت إلى الحمام وبللت « برنسه » الأبيض الجميل بدموعى ، وقد تبادلنا البرقيات والرسائل مرة كل يوم ، وأحيانا مرتين أو ثلاثا. إن صداع رأسه يشتد عليه ، وإنى لمشغولة مهمومة ، وقد نصحنى أن أعمل أى شىء أقطع الوقت به ، لأخفف به عن نفسى أعباءه . فمن رأيه أن هذه هى الطريقة الوحيدة للسلوة. وعلى ذلك رحت أطرز للطفل المنتظر فراشاً وثيابا ، على اعتبار أنه أنثى ؛ فلم يخطر لى قط أن يكون ولدا ، فهو يريد بنتاً ، وعلى ذلك ينبغى أن أضع بنتاً . فذلك هو الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أعطيه إياه . الشىء الذى لم يكن له قط ، ولا يستطيع أن يشترى بالمال !

إن الناس يقولون لى دائماً : « لابد من أنه شىء رائع ذلك الزواج من أعظم مغن فى العالم » . وكنت أجيب دائماً : « نعم إنه لكذلك » ! وما ذلك عندى لأنه أعظم مغن فى العالم ، بل لأنه أعظم شخص فى العالم .

لقد جاءتنى رسالته الأولى من المحطة ، على يد رسول خاص.

وبعد ذلك صرت أتلقى فى البريد كل يوم خطاباً أو خطابين »

فى القطار إلى المكسيك بعد فلاديلفيا
١٧ سبتمبر سنة ١٩١٩

« دورويا أعز عزيزة !

أبدأ بأن أسألك المعذرة إذ أكتب إليك ، على آلة الكتابة الصغيرة ؛ لأن القطار يجرى كالشيطان ، وتستحيل الكتابة بقلم الحبر . إن شدة تحرك العجلات تحتنا ، تخيل إلينا أن البدن ينساب ويخلص من الساقين ، أو كأننا نترنح كما يترنح السكارى .

وستغفرين لى إذا ما علمت مبلغ ألمى ، وقد غادر القطار نيويورك . أحسست فى نفسى شيئاً ، لا أستطيع التعبير عنه . لقد انسدلت من حولى حجب من الظلمات ، وتوقف قلبي هنيهة عن الخفقان . لقد أغمضت عينى وامتلأ ذهنى بك . وتمنيت لو عشت فى هذا الحلم الذى ليس فيه سواك ، حتى أصل إلى المكسيك، لكن ما كدت أصل إلى « منهتان » حتى هجم الناس على ديوانى ، وأزعجوا أحلامى . بيد أنى ما زلت فى حلم ولو تكلم الناس وصاحوا ، وسأظل فى حلمى حتى أعود إليك . هكذا أحبك ، وهكذا سأظل متفانياً فيك

إلى أن أقف بين يدى الله فى يوم الحساب ، وقد حملتك أمام الله فى قلبى »

ووضعت دوروتى فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩١٩ طفلة سمتها جلوريا ... طفلة إيطالية بمعنى الكلمة ، تشبه أباها شبها غريباً ، فلها جبينه العريض ، وفمه الصغير الضيق ، وعيناه الجميلتان اللتان تشعان بريقاً كالنار .

لقد تم لكاروزو ما تمنى .

١٢ — رسائل

مدينة المكسيك

٨ أكتوبر ١٩١٩

الرابعة والنصف بعد الظهر

« يا مليكتى ويامملوكتى دورو !

ما إن استيقظت هذا الصباح ، حتى سألت عن رسالة منك . فأجابونى بالنفى ، فاغبر وجهى ولعنت قاطعى الطريق ، الذين أشعلوا النار فى الأسبوع الماضى فى القطار ، خشية أن تكون رسائلك قد راحت طعماً لها . ثم ما لبثت السكينة أن نزلت

على نفسى . وآثرت الانتظار . ثم بدأت أعد الأيام التى سأحرم فيها رسائلك ، حتى كل ذهنى . وبالطبع قلت لنفسى إن هناك « التلغراف » ، لكن ما أبعد الفرق بينه وبين الرسالة ! فهذه تحررها أيدينا فى حين أن البرقيات تكتبها أيدى قوم غرباء عنا ، لا يحسون إحساسنا . وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ذهبت إلى « الحلاق » لأقص شعرى وأقلم أظافرى ، وفى الثالثة عدت . وبعد الغداء ، جاء زيراتو بوجهه الأغبر الكسول وقال : « عفوا ياريس ! فأنا حيوان ! وألتمس المغفرة » . ثم دس يده فى جيبه وأخرج أربعة خطابات منك ، وصلت أثناء غيابى . فتصورى فرحى ! شكرا ياعزيزتى !

كلا يادوراى ، يستحيل أن تحبينى كما أحبك . فأنت شابة ، ولا تعرفين الكفاية من الحياة والحب . لقد نلتك فى وقت كان قلبى فيه قد سقط تحت ضغط ظروف الحياة ، ولكنه إذ تعلق بك ، ألقى أعباءه ، وتحرر من أثقاله ، واندفع بكل قواه إلى حبك ، أعنى أنه طرد كل السم الذى تراكم فيه خلال سنين عدة ، ووجد فى حبه الجديد ترياقا وشفاء وهناءة . أجل يادورو إننى أعبدك .

شكرا لمفارش الحرير التى وضعتها فى أدراج مكتبى ، وسأعجب بها عند عودتى . قولى للطفلة أن تلزم الهدوء والسكون ، فهذا

هو الفرح الحق . والحمد لله على ما آتانا من نعمائه . والآن مساء الخير يا زوجتى الصغير المعبودة ، وعناق حار حنون » .

مدينة المكسيك

٩ أكتوبر ١٩١٩ — ٣,٣٠ بعد الظهر

« دورو الحبيبة

فى الليلة الماضية ، شعرت آخر السهرة بانحباس صوتى ، وفى هذا الصباح ، نظرت فى المرآة إلى الحبال الصوتية ، فوجدتها شديدة الاحمرار . فتصورى حالتى العصبية ! . ثم أتممت زينتى واستحممت وعدت إلى الفراش ثانية ونمت حتى الظهر. ودعوت ماربو لأعرف الوقت ، لأن ساعتى كسرت ، فأعطانى رسالتين منك ، فوضعتهما على قلبى ، وقرأتهما ثلاث مرات. ثم نهضت ونظرت إلى حلقى ثانية ، فوجدت أنه قد تحسن بعد الدواء الذى تناولته . وكان الجو صحواً جميلا ، فارتديت ملابسى وخرجت .

قد عز على ياحبيبتى دورو أن أعلم ما أصاب عينيك ، كيف تتألمين وأنا بعيد عنك . أحمد الله على سلامة العينين النجلاوين .

لا تهتمى كثيراً بنفقات البيت ؛ فإنى أريد أن أراك دائماً

جذلة سعيدة . وإذاحدث يوماً أن أعوزك المال ، فإنى سأعمل فى أشق الأعمال ، ولو حملت الحجارة على كتفى ، لأجعلك تستمتعين بالحياة .

إننى لك دائماً روحاً وجسداً ، كل قبلاتى ، وكل حبى لمعبودتى دورو . »
أنريكو

حاشية :

« لقد غنيت شمشون ودليلة للمرة الرابعة ، بناء على طلب الجمهور »

مدينة المكسيك

١٠ أكتوبر سنة ١٩١٩ الرابعة مساء

« دورو يا أعز الناس على !

عندما تركتك أمس بدأت أجرب صوتى . ياله من صوت متحشرج ، لا يكاد ينطلق ! غير أنى بدأت أدربه شيئاً فشيئا لاضطرارى إلى الغناء الليلة . وقصدت المسرح ، ولم أبذل جهدا فى الغناء ، حتى أستطيع الاستمرار إلى النهاية . ومر المشهد الأول بلا تصفيق مطلقاً ، فاشتدت حرارتى ، وسخن فى الفصل الثانى صوتى ، وكان التوفيق عظيما ، وأشكر الله أولا وآخراً . ولم يبد الجمهور تحمسا فى بداية الفصول ، غير أنه فى

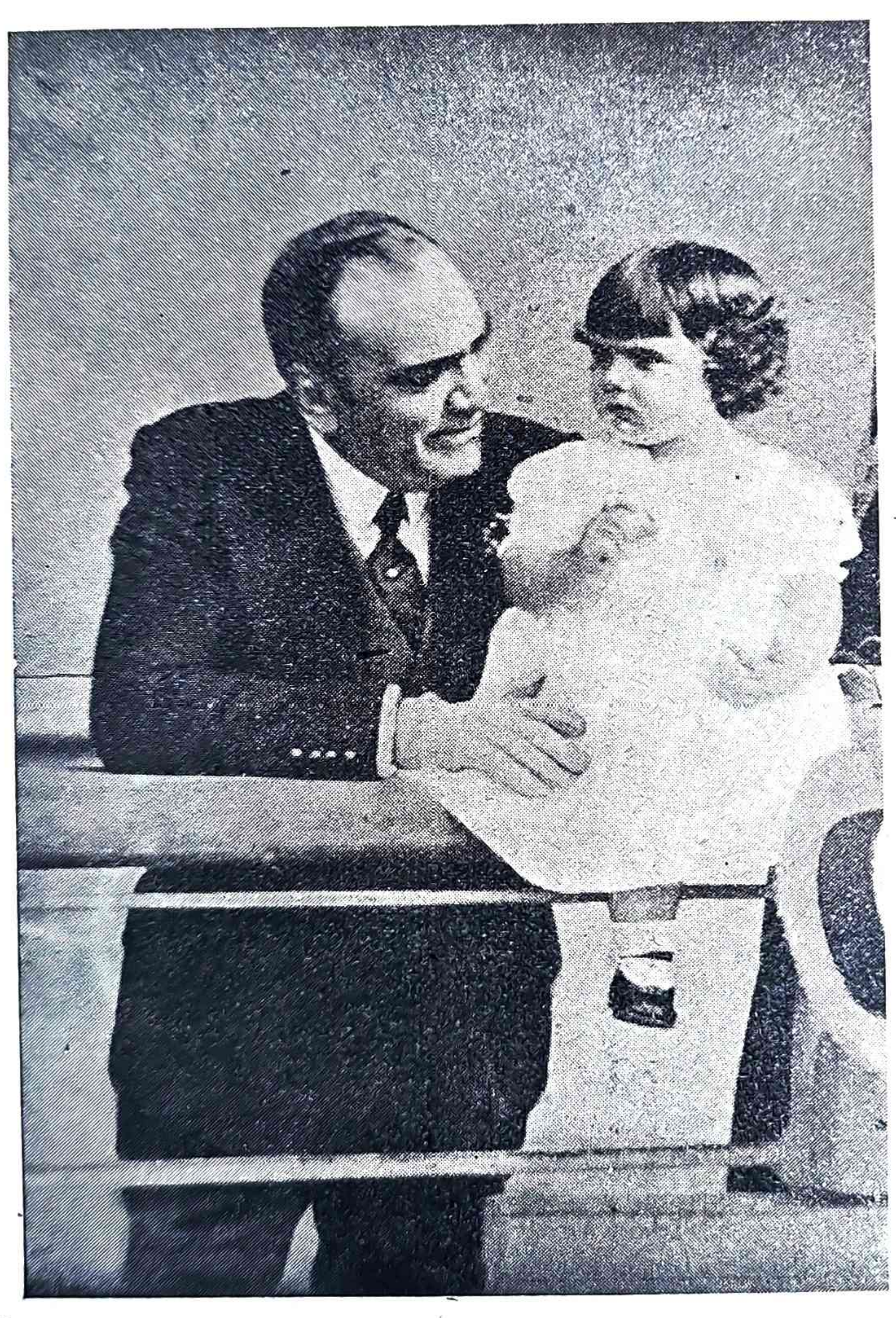
نهايتها كان يهتف ، ويستعيدنى خمس أو ست مرات .
ولما كنت قد وضعت أشياء عدة على حلقى ، فقد صرت
طول يومى لا أكاد أستطيع الكلام .

أخبرتك فى برقيتى أننى سأحتفظ بالنقود ؛ لأننى أخشى
ألا أتمكن من القيام بالبرنامج كله. وإذن لا مندوحة من رد
العربون .

شكرا أيتها الحبيبة، إذ تجدين وقتا للكتابة إلى كل يوم .
أما بخصوص النزاع الذى بين صديقتك وزوجها فلا أرى
التدخل . فالناس الذين يخلقهم ربهم كالمربعات ، لا يمكنك
تحويلهم إلى دوائر .إنى آسف جدا ، لكن الأولى بالرجل أن يؤدى
شيئاً لزوجته، وإلا قصرت حياتهما الزوجية . وكذلك ينبغى
بالطبع للزوجة أن تدرك أن الزوج يعمل ، فينبغى أن يكون له
امتياز القيادة .لا تعطى أحداً نصحاً ؛ لأن المثل عندنا يقول :
« لا تضع أصبعك بين الزوج والزوجة » .

مساء الخير ياغرامى وحبيبتى وأحلى ما عندى . »

أنريكو



كاروزو وصغيرته جلوريا

مدينة المكسيك

١١ أكتوبر ١٩١٩ الساعة الخامسة مساء

« يا ظريفتى دورو

أكتب إليك كما أفعل دائماً ، من اللحظة التى غادرتك فيها فى رسالتى ، لأن ذلك أسهل على ، ولتعرفى تماما فى الوقت نفسه ما أفعله فى النهار والليل .

لا تمثيل الليلة ، لكنهم استأذنونى فى أن يأتوا إلى بسيدة لأسمع غناءها قبل إلحاقها بالفرقة. فجاءت وسمعتها، ولا بأس بها.

وفى العاشرة أويت إلى الفراش ، وأفكارى كلها متجهه إليك. ودعوتك مرارا وتكرارا بأحب الأسماء ... « دورو - دوراى - دورى » ، وظللت هكذا أهتف وإن لم يجبنى أحد، ثم بدأت أنام . آه إنك ياعزيزتى لا تستطيعين تصور رغبتى فى العودة إلى البيت . يخيل إلى أننى هنا منذ ألف سنة، وفى كل لحظة أعد الأيام التى ينبغى على احتمالها حتى أراك . بودى لو أتظاهر بالموت فيرسل المكسيكيون جثتى إليك . وعندئذ تجدينى ما زلت على قيد الحياة ، ولا أفترق عنك بعد ذلك أبداً . أواه ياحبيبتى ! إنك لا تعلمين كيف أحبك .لم يأن الأوان لترى مبلغ هذا الحب . سترين ذلك فيما بعد ، وتحبيننى على نحو

ما أحبك . إن قلبي يخفق بقوة ، يريد أن يشق صدرى ليطير إليك. إننى لن أتركك بعد ذلك أبداً أبداً . عندما أعود إليك سآخذك إلى حداد ليصنع حلقة تربط مدى الدهر قدمى بقدمك .

إن آلامى هى التى توحى إلى أفكارى . ينبغى أن أكف عن العمل ، وأن أعود إلى وطنى ، لنعيش فى مكان دافئ وإلا فإنى لا ألبث أن أسقط كما تسقط الفاكهة الناضجة من الشجرة . إننى أخاف أن أتركك إذ أموت ، وإنى أريد أن أبقى بقربك طويلا طويلا ، لأستمتع بجمالك ورقتك وحنانك. والآن ، إنى أتركك على أسف ؛ إذ يجب أن آوى إلى فراشى. إليك حبى كله وعناقى كله ، ولى منك أشهى القبلات . »

أنريكو

مدينة المكسيك

١٢ اكتوبر ١٩١٩

السادسة مساء

« حبيبتى دورا

هأنذا بعد يوم فظيع ؛ فقد بدأ « الماتينيه » فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، وكان الصوت بديعا وروحى المعنوية عالية ، لكن السماء كانت ملبدة بغيوم سود بدأت تتراكم . وفى نهاية

الفصل الأول بدأ المطر يتساقط رذاذاً رذاذاً . وبدأنا الفصل الثانى ، وكان النجاح عظيما كما كان فى الفصل الأول . واستمتع الناس كثيراً بالغناء . وبدأت أغنى تلك العبارة التى جاء فيها : « إنى أتحدى الرياح والبروق والرعود » ، وإذا الطبيعة تلبى التحدى وترسل علينا فعلا رياحاً وبروقاً ورعوداً ، كان قصفها يصم الآذان . وعندما سكن الرعد ، هبت الريح . وبدأت أستعد للفصل الثالث ، لكن المطر انهمر من خلال المسرح المؤقت ، وأغرق غرفتى ومقاعد المتفرجين . فرفعوا مظلاتهم أو معاطفهم فوق رءوسهم . وظللنا هكذا نصف الساعة . ولما تعذر على البقاء ، خرجت إلى الجماهير أسألهم ماذا نصنع ، فكان جوابهم الذهاب إلى البيت . وعلى ذلك انصرفت . وأظن أن هذه هى أول مرة فى حياتى الفنية ، أعود فيها بنقود دون أن أؤدى عملا . ما رأيك فى أن أعطى نصفها للفقراء ؟ . غير أن « المتعهد » لم يرد إلى أهل بلده شيئاً . وعلى ذلك لا أرى سبباً يدعونى إلى إعطاء الفقراء نقودى . أولى بها أقاربى المعوزون »

مدينة المكسبك
١٦ أكتوبر ١٩١٩
السابعة والنصف مساء

« دورو يا أعز حبيبة !

غادرت الفراش فى هذه اللحظة ، بعدما أصبت بنوبة دامت ساعتين . آه يا حبيبتى ، إنى لا أدرى ماذا أصنع فى مثل هذه الحالات !. ما أشد خوفى ! أنا لم أعد أريد البقاء بعد فى هذه البلاد . أحب أن أموت معك . إنى أبكى من شدة الألم ، ومن حملى إياك على البكاء بسببى ! إنى لا أرتكب أمراً إداً ، فلماذا إذن كتب على هذا العذاب الأليم ؟. لقد ضاق صدرى بأنفاسه المحتبسة ، وشحب لونى كالموتى . لقد أصبت اليوم مرتين بهذه النوبة المروعة .

يقول الناس إن الله كان كريماً معى ! وهأنذا أحنى رأسى لأتلقى . مكارمه . . .

أتمنى لو كنت بقربى ، لأرى محياك الجذاب الجميل . دورو يا حبيبتى إننى أعبدك ولا معبودة لى سواك » أنريكو

في القطار من مونتريال إلى تورنتو
الثلاثاء ٢٨ سبتمبر ١٩٢٠
العاشرة صباحاً

« دورو يا حبيبتى !

هأنذا كلى لك بمجامع قلبى . مغلق فى ديوانى ، قبل أن أبدأ بعمل شىء ما . إنى أدع قلبى يتحدث إليك يا دوراى . أيتها الجذابة الجميلة الطيبة كالخبز .

أجل يا أعز الناس . لم أكن أتوقع مثل هذا النجاح ، وأنا على حالتى من الإصابة بالبرد . وأظن أن نخفاض ضغط الدم ، هو الذى لم يجعلنى عصبياً . لقد كنت فى الواقع شديد الهدوء ، لا أكاد أكلف صوتى جهداً . وكذلك كان النجاح رائعاً .

عشرة آلاف شخص فى داخل المسرح وخارجه كانوا ينتظروننى . وعندما ظهرت على المسرح ، قوبلت باستقبال هائل ، كاد يؤثر فى . وبدأت أغنى دورى فى « الحياة البوهيمية » .

وعندما انتهيت ، تفجر دوى عاصف من التصفيق . واضطررت أن أعيد الغناء ثلاث مرات . وأرادوا المزيد ، لكننى أبيت ، لأنه كان ورائى أغنيتان أخريان . وكان الجمهور

كريماً ، وساهم ذلك فى النجاح . وكانت أغنيتى الثانية « إكسير الحب » ، وقد أعيدت بعد ذلك ثلاث مرات . ثم غنيت « البلياتشو » ، وجاء غنائى أحسن مما كان أبداً ، وكان التصفيق جنونياً . وقد ظل الجمهور كله واقفاً يحيينى ، بتلويح المناديل ، وورق البرنامج ، والهتاف ، والدعاء ، والتصفيق . وقد دفع لى فى هذه الحفلة عشرة آلاف دولار بشيك ، أرسلته فوراً إلى بنك كولومبيا (وهو ألفان وخمسمائة جنيه مصرى) أجراً على ثلاث « وصلات » .

أليس عجباً ما يحدث لنا ؟ أليس عجباً ذلك الوصال الروحى بيننا ؟ . فأنا لم أنم الليل وكذلك أنت . ولقد شعرت بالحر ، وكذلك أنت . ولقد تفقدتك ، وجذبنى الحنين إليك ، وكذلك أنت . »

• الساعة الثانية بعد الظهر

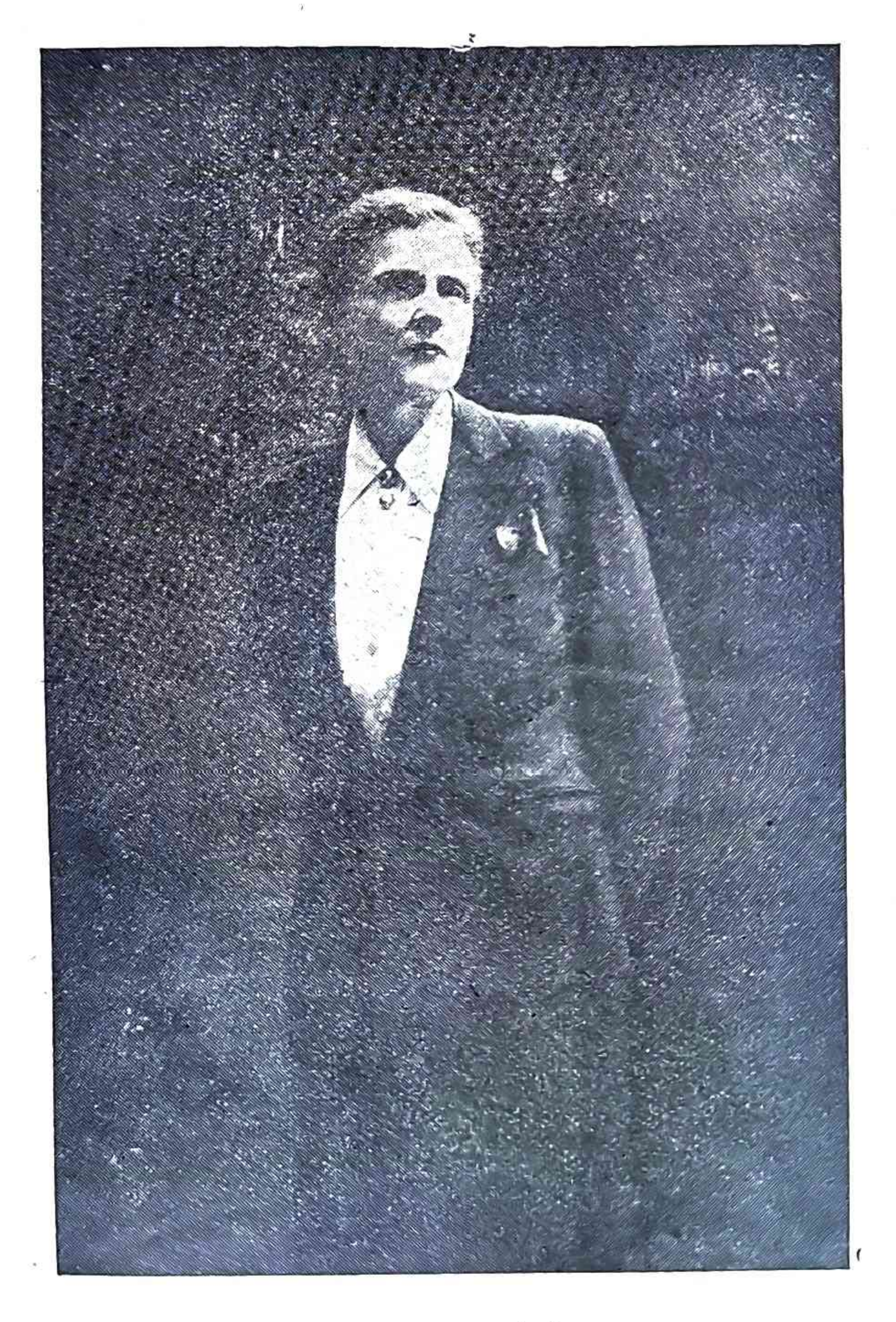
« آسف ياحبى ، إذ جعلتك تنتظرينى أربع ساعات ، لكن الأعمال استغرقت وقتى . أقبلك وجلوريا ، قبلات من قلبى . »

١٣ — الحنين إلى الوطن

قام كاروزو فى جولة فنية إلى هافانا وسانت كلارا ونيو أورليان ومونتريال وسان باولو وغيرها ، ثم عاد إلى نيويورك فى نوفمبر وقد ساءت صحته كثيراً ، فإن الإجهاد المتتابع والتأثيرات المضنية والجو الأمريكى الذى لم يخلق له قد نالت منه نيلا عظيما. وكان يقضى الليالى الطوال مؤرقاً ، يصرخ أحياناً من شدة الألم ، وقد طالما نصحه أطباؤه بالراحة فلم يصغ لهم ، وعبثاً توسلت إليه زوجته .

وفى ٣ ديسمبر غنى ، برغم كل تنبيه وتحذير ، وفى المتروبوليتان « شمشون ودليلة » وهذا الدور المضنى عادة قد كلفه جهداً مروعاً ، فلما رأته زوجته بعد التمثيل قد اغبر وجهه وشاهت قسماته ، نال منها الجزع .

وفى اليوم التالى تحركت فيه آلام النفرالجيا ، وأصيب بإغماء ، ونصح الطبيب بحمامات وعلاج بالكهرباء . وبعد أربع وعشرين ساعة اختفت الآلام كما لو كانت بفعل ساحر . فأبى أن يبقى دقيقة واحدة فى سريره ، ونهض يلعب ويمزح ،



السيدة دوروتى كاروزو قرينة الفنان العظيم
ومؤرخة حياته التى ظلت وفية لذكراه

وقد استرد مزاج الحياة ، وانصرف إلى دراسة رواية « أندريه شانييه »

ثم اتفق فى اليوم التالى مع مدير أوبرا المتروبوليتان على القيام بجولة جديدة فى أمريكا الجنوبية ، وكان عليه أن يغنى فيها « عطيل » و « رجولوتو » و « تروفيرى » .

وعندما غنى دور « البلياتشو » ورفع عقيرته بالغناء احتبس الصوت فى حلقه فجأة كما لو كان نسراً هائلا يحلق فى طبقات الجو العليا وأصابته رصاصة صياد قاتلة . وساد القاعة هرج ومرج فقد تحول الصوت الجميل إلى صرخة غليظة وإلى ضجيج مبحوح فأحس الناس جميعاً أن الساعة الفاجعة دقت ..وأسدل الستار . .

ولم يكد يخرج من المسرح حتى انهار بين أذرع رفاقه قائلا :

– إن كل شىء يظلم أمامى . . . كأن كسراً شنيعاً أصاب حلقى ... إنى أعتقد حقاً أن صوتى قد انتهى .

ومرت الأيام التالية فى الأسى والشجن ...

كاروزو يريد أن يغنى . كاروز لم يصب بشىء . كاروزو لم يزل سليم الصوت . كاروزو سوف يغنى . أتراه سائراً إلى حتفه ؟ إنه سائر لا يلوى على شىء . فبعد يومين اثنين غنى فى

مسرح الكونسرفتوار « معهد الموسيقى فى بروكلن » .

وكانت تلك هى بداية النهاية. فإن الحبال الصوتية التى امتدت إلى أقصى حدودها لم تعد تستطع أن تقاوم هذا الجهد وهذا الشد اللذين هما فوق ما تتحمله الطبيعة البشرية ؛ فى الفصل الأول اندفع فيض من الدم من فم كاروزو وسقط مغشياً عليه .

* * *

ومع ذلك عاد إلى الغناء . وكان غناءه الأخير .

حدث ذلك فى ليلة عيد الميلاد فى أوبرا المتروبوليتان . فى رواية « اليهودية » فقد أجمع النقاد على أنه فى تلك الليلة التى أعد لها العدة شهوراً طويلة قد بلغ الذروة ، وقد كان يشاهد فى أمسيات الجمعة فى كنائس يهود نيويورك يلاحظ حركات أيدى المغنين والمرتلين وأزياءهم وإشاراتهم حتى تأتى الصورة طبق الأصل .

وقد بلغ ما أراده من التأثير فى الجماهير ، بيد أنه أحس فى ذلك المساء أن ملاك الموت قد ضربه بجناحه وسمع فى أذنه الهمسة المرعبة : « إنك لم تعد من هذه الدنيا »

وفى اليوم التالى استطاع أن يقصد حى برودواى ويشترى لعباً لصغيرته جلوريا . وكانوا قد نصبوا شجرة كبيرة لعيد الميلاد مثقلة باللعب والتحف والشموع . غير أن صفوهم قد عكرته نوبة أليمة أصابته وجعلت صياحه يمزق القلوب ويصم الآذان ،

فهرعت زوجته في خبل من الرعب والحزن تدعو الأطباء فأعطوه حقن المورفين لينام وانعقد مجلس طبي من أشهر الإخصائيين واستقر رأيهم على أنه بعد ما يتحسن قليلا لابد من إجراء عملية يفتحون فيها جنبه ليتنفس .

وكان العجز عن الغناء عند كاروزو هو انتهاء الحياة . فيم العيش برئتين معتلتين وحلق ممزق لا نفع منه ؟ إن القيثارة قد تحطمت وتقطعت أوتارها . وظل يومين بين الحياة والموت .

وكانت نيويورك كلها تتبع بقلق نشرات الأطباء واحتشد أمام المصحة ألوف الطليان من الصباح إلى المساء كما لو كانت كارثة قد دهمت بلادهم . وكانوا في انتظارهم وجلين من النبأ المشئوم ، يصلون من أجله ويبتهلون إلى العذراء أن تشفي كاروزو. وذاع في ١٥ فبراير نبأ موته فاهتزت له نيويورك ولكنه كان سابقاً لأوانه فقد تنبه وعرف بالجهد زوجته وبنته .

وجاء الربيع فانتعش المريض بهوائه العليل ، وما أسعد الناس الذين لمحوه في شارع برودواي مصحوباً بزوجته الصبية وبنته الجميلة وعلى وجهه الباهت ابتسامة شاحبة إذ يرى المعجبين يحيونه ويرفعون له القبعات أو يلوحون له بالمناديل ،وأمر العربة أن تحمله إلى فندق المتروبوليتان ووقفت أمام ذلك البناء الأبيض المنيف فامتلأت عيناه بالدموع ورفع قبعته وانحنى حاسر الرأس

أمام معبد الموسيقى. وفى سريرة قلبه قدم له وداعه الأبدى الأخير.

إن ستاره الذهبى الهائل لن يفتح أمامه أو ينحسر عنه، إنه لن يعود أبداً فيقف على خشبة المسرح أمام دائرة النور ويغنى للجماهير المتلهفة. إنه لن يسمع بعد تلك الهتافات المدوية، إنه لن يعود أبداً فيغنى.

أو كما قال فيه شاعر الهند: «إن أجمل آلة فى الدنيا قد أصابها الصمت. إن القفص قد أغلق على أندر العصافير المغردة».

* * *

وفى أول الصيف سافر كاروزو إلى إيطاليا، إلى وطنه، وهمس على ظهر الباخرة «الرئيس ولسن» مودعا نيويورك:

– أريد أن أموت فى مسقط رأسى... فى بلادى، على أرض وطنى، بين قومى...

ولوح بيده مرة أخرى لألوف المعجبين والمعجبات الذين تزاحموا فى حركة عصبية حزينة ليروا معبودهم يرحل الرحلة التى لا عودة منها.

وخرجت عابرة المحيط مبتعدة عن الميناء فى أناة وجلال.

وقصد أول ما قصد معبد بومباى ليحج، إذ كان قد نذر للعذراء وهو مريض نذراً. فقد تأمل طويلا خلال مرضه فى

المصير ، وفى الحياة ، وفى الله .

وكانت غرفته فى المصحة ناصعة البياض يسودها السكون والسلام اللذان يحملان المرء على امتحان الضمير ، فوضع حياته فى كفة الميزان .

ماذا نال من دهره ؟

كل شىء ، كل ما يمكن لمخلوق أن يرجوه من الحياة .

ولكن ماذا تساوى الحياة ؟

إنها لا تساوى جناح بعوضة .

إن هذه الحياة الساحرة العمياء قد غمرته بالنعم والآلاء وكل ما يمكن أن تحمله إلى بشر من مقدرة وغنى وعبقرية .

أولم يكن أولى له لو عاش ، كما نشأ، بسيطاً متواضعاً ؟ إذن لأصبح الآن بلا ريب عاملا ماهراً فى مصنع ، أو رئيس بعض العمال ، ولظل محتفظاً بصحته وهو يكسب فى الشهر خمسة جنيهات ، ولكانت له زوجة تدبر بيته وأم صالحة لأولاده .. أولم يكن أولى له لو غنى لذات نفسه فى مطلع الشمس وهو يغدو إلى مصنعه وفى غروبها وهو يروح إلى كوخه ؟

لقد ذكر جبال بلاده وأشجارها الرائعة وأوديتها الزمردية ، ما كان أحلى أن يغنى على قممها ، وأن يسبح بأفراح وأحزان العامل الشريف المسكين . . لعله كان مخطئاً إذ باع فنه الجميل

واستبدل بصوته العلوى ذهبا خسيساً .

لعله كان قد أحسن صنعاً لو استمع إلى نصيحة معلمه القديم الشيخ ڤرجين الذى لم يكن يؤمن بموهبته . كانت تكون الدنيا أشد فقراً لأنه ليس فيها كاروزو ، وكانت تكون أشد غنى لأن فيها رجلا سعيداً . لكن لا ، لقد كانت أمامه رسالة عظمى يؤديها . وقد بلغها ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى النهاية . فلعله بفنه الجميل قد حمل إلى بعض الناس بعض لحظات النسيان مما يلقونه فى أيامهم من الخيبة والأحزان .

١٤ — الصوت الأخير

أراد أن يعود فيرى كل شىء من معالم وطنه وملاعب طفولته ومغانى شبابه : نابولى ، كابرى ، سان جيوفانى .. وأن يزور قبراً عزيزاً فى مقبرة صغيرة . . .

وقام بهذه الرحلة فى يوم قائظ من شهر يوليه وزوجته الصبية الكريمة الباسلة لا تفارقه لحظة بل تسهر عليه الليالى الطوال ، وكان لاهثا متقطع الأنفاس ، وعجزت رئتاه ، وهو يجر جسده المريض جراً حتى بلغ صاعداً السلم المرمرى لكنيسة العذراء

« سانت أنا » ذات القباب الذهبية يفى لها النذر ، وهو الذى كان يرتل فى ساحتها مع الغلمان ترتيل « السلام عليك يا مريم » فبلغ تمثالها وجثا أمامها .... لقد كان دائماً شديد التقوى غير أن الصلاة التى قام بها هذه المرة كانت أخلص الصلوات وأحر الدعوات . .

ووزع عشرين ألف جنيه على الفقراء ثم عاد إلى نابولى .

وكثيراً ما كان المارة يتوقفون أمام شرفة قصر كاروزو ، وكان يمضى فيها الساعات العديدة جالساً فى مقعد ذى عجلات فينظرون بعطف إلى هذا الرجل المضنى الذى تقوست كتفاه ، وغارت عيناه واعوج وجهه ، كما لو كان يتوسل إلى الشمس لتمنحه الصحة والشفاء . وشفتاه تتحركان أحيانا دون أن تخرج منهما نغمة ، وعند قدميه تلعب بنت صغيرة فى العامين من عمرها لا تفارقه ذات جدائل سود وكان الناس يهمسون : هذا كاروزو وابنته .

ثم تغرب الشمس وتهب من البحر نسمة منعشة حاملة معها أنغاماً حلوة من المدينة التى لا ينقطع فيها النغم ليل نهار . وتقبل امرأة شابة نحيفة القوام فى خطى خفيفة فتدفع الكرسى الذى ينام عليه زوجها إلى إحدى الغرف ، لكن كاروزو لا ينام ، إنه يقول أتحسبين ياعزيزتى أن نسيم نابولى العليل ، كله فرح ، وكله موسيقى ؟ ثم ترصع جبينه نقط كبيرة من العرق .



اخر صورة لكاروزو على شرفة قصره فى سورنتو قبل وفاته بأسبوع واحد

هذه الأنغام هى لى يا دورا ، ياحبيبتى ، لى أنا الذى لن أستطيع أن أغنى أبد الدهر .

* * *

ــ افتحى النافذة يادورا .

ثم هم قليلا بالقيام من الأريكة التى يستريح عليها ، ومر بيده التى نحلت واصفرت على شعره وقال : « إن الإنسان يختنق هنا ، هل فتحت النافذة يا حبيبتى ؟ »

لقد حار الصوت الآن ، وصار يلهث ويختنق ولا يكاد يعرف ونهض وسار بخطى مضعضعة نحو النافذة معتمداً على كتف دوروتى :

ــ يالهواء البحر... ما أطيبه ... إنى أحس أنه سيشفينى .. انظرى يا دورا ، انظرى إلى نابلى ، يا لها من مدينة مدهشة ! انظرى إلى الميناء ، إنه هناك حيث كنت أهيم على وجهى فى صباى أغنى للبحارة الشيوخ أغانى القراصنة المرحة .

وهم بأن يغنيها فأمرته بالسكوت ؛ لأن مجرد الكلام محرم عليه ، قائلة : « سوف تشفى وتغنى من جديد » فقد كانت لا ترضى بأن يقضى على هذا الصوت الرائع بالسكوت المطبق .

وبعد ظهر أحد الأيام الجميلة نظر العليل من النافذة ، وكان الأفق وراء السحب الرقيقة كالدانتلا تشف عن مثل بركان

ڤيزوف يبدو فى قلب السماء الصافية ، وقد خفضت صيحات البحارة ورنت ضحكات البنات والأطفال . وصفرت باخرة صفيرها المتقطع المتكرر ، وكاروزو يستقبل من المدينة لغطها ومن الحياة آخر أنفاسها . إن شبابه كله يرتد إلى قلبه من وراء هذه الأصداء المختلطة التى يعرفها ويتبينها على بعدها عنه ويتصورها . قال له صاحبه وكاتم سره :

– هذه هى المرة الثالثة الذى يجىء فيها هذا الغلام ليراك .

– وماذا يريد منى ؟

– يريد أن تسمعه . فهو يغنى . وسأصرفه كالعادة طبعاً .

– لا .. لا ، دعه يدخل ، ولا تنس أن تجىء غدا فى الساعة المعتادة .

– لك ذلك يا مايسترو ، لكن احذر أى تهيج أو مجهود .

– لا تقلق . لن يصيبنى سوء ، سأستمع إلى هذا الفتى وكفى فلعل له صوتا جميلا .

واستأذن كاتم سره زيراتو ، الذى كان أيضاً شاهد عرسه وهو من زمن طويل لا يفارقه ، وخرج وفى نفسه قلق عليه ، فقد كان شديد التعلق بهذا الفنان العظيم . وكان يعنى به كما لو كان ولده .

ودخل الفتى خجلا وجلا فشجعه كاروزو وسكن من روعه

وسأله أن يغنى ، ثم استلقى فى مقعده ليستمع وبدأ الفتى يغنى ، وارتجف صوته فى مطلعه ، ثم ثبت وارتفع وصفا . وأدرك كاروزو موهبة الفتى فنزل إليه ورأى عينيه المشتعلتين ، وشعره الفاحم وجسمه القوى العضلات فتذكر شبابه وما لقى فيه من صعاب ، وغمرته شهوة إلى الغناء ، جامحة لا تقاوم .

كيف يمكن أن يغنى ما غناه ذاك الفتى ؟ كيف تراه قد غنى هذا الصوت على المسرح عند ما كان فى عنفوان صحته وأوج مجده ؟

رباه أفلا يستطيع أن يسترد شيئاً من الصحة الغابرة ! وخيل إليه أنه بخير ، وأخذته رغبة جنونية فى الغناء وأحس أنه لم يفقد الصوت وأن تلك الهبة العجيبة ما زالت مستقرة فى جسده العليل ، وأن قلبه الحزين لايدرك ذلك . ما من أحد يستطيع أن يجرد من هباته . يستحيل أن تكون العلة قد قتلت ذلك الصوت وأخمدت تلك النار المقدسة التى يغذيها إيمانه ولحمه ودمه . . .

ولم يعد يسمع غناء الغلام ، إنه فى هذه اللحظة لا يرى نفسه إلا أنريكو الصغير الذى يغنى ويكرر ويعيد وماؤه الثقة فى حضرة معلمه . لكن لم يكد يرجع بأفكاره إلى الماضى حتى عاد إلى الحقيقة وكان الفتى قد أتم غناءه وانتظر رأى أستاذه بنظرة متسائلة متوسلة يلمع فيها شعاع الرجاء .

– يا ولدى ، اعتقد أنك ستكون مغنياً طيباً ، ولكن يجب أن يتغير تعبيرك ويتخذ لوناً آخر .

ونهض كاروزو وقال بصوت مختنق مضطرب :

– اسمع ! سأعلمك كيف ينبغى أن يغنى هذا الصوت .

– ولكن ياسيدى الأستاذ .. أنت مريض .. وما ينبغى لك .

فغضب كاروزو غضبة مضرية :

– كيف ؟ أتجرؤ على أن تقول إننى مريض ؟ أتريدون كلكم إذن أن تدفنونى تحت التراب ؟

– عفواً يا مايسترو فليس هذا الذى أردت أن أقول .

– إذن فاعلم أننى ولو كنت مريضاً فإن صوتى كائن . إن صوت كاروزو خالد خلود الدهر .

ثم هدأ وقد أضناه الجهد واتخذ صوته بعد ذلك صفاء غريباً وهو يقول :

– إن هذا الصوت ليس لى ... لقد عهد إلى به ، إنه أمانة تسلمتها وعلى أن أحافظ عليها ثم أردها .

وكان واقفاً وسط الغرفة كتمثال جلله الأسى والمهابة أعظم مما كان أبداً. ثم وضع يده على قلبه بتلك الحركة المألوفة منه وبدأ يغنى ، وكان الفتى قد شحب وجهه من الرعب وهو يصغى مجذوباً كما لو كان يشاهد حدثا خارقاً للطبيعة . وكانت النغمات

تخرج بداءة بصعوبة من الحلق الجريح ثم اشتدت وصفت ، وتجلت وتمت المعجزة . لقد غنى كما كان يغنى يوماً ما بتلك القوة وتلك القدرة اللتين لا نظير لهما ، وكان الصوت من الصفاء بحيث يحير العقول . وعندئذ أقبلت دوروتى وألقت بنفسها عند قدميه صارخة :

ـ يا حبيبى أنت تقتل نفسك ، اسكت ، سألتك بالله أن تسكت . . .

فقد سمعت دوروتى الصوت الذى هو فوق صوت الإنسان ، وكان لا يمكن إلا أن يكون صوت زوجها ، لكنها لم تستطع أن تصدق أذنيها ، ثم أدركت من فورها مدى الخطر الذى تعرض له فقد أنذر الأطباء بأن « أدنى مجهود سيكون فيه ... »

ـ أتوسل إليك بحياتى أن تسكت ! !

وكانت تتوسل وتنتحب ، وتعض يديها ، وهو يدفعها برقة وحزم معا .

وغنى كاروزو حتى انتهى الصوت ، وفى عينيه دمعتان تلمعان وحنى رأسه برقة نحو زوجته وقال لها بحنان :

ـ أسمعت يادوروتى ، إنى أستطيع أن أغنى .. إن صوتى قد بعث .

ثم استلقى على الأريكة وجلست بقربه . ووضع رأسه على

ركبتها وقال بصوت أشد ما يكون حنانا لم تتبينه زوجته إلا بالجهد :

– سأغنى بعد بضعة أسابيع من جديد . وسيملأ صوتى أوبرا المتروبوليتان وستخفق لى ألوف القلوب فى الصدور ، وسأظل أغنى ، وأغنى .. وسيفتن صوتى الأجيال القادمة وسأفوز على الزمان نفسه .

ثم أغفى إغفاءته الأخيرة وسكتت الأجراس الفضية. لقد نام فى أحلام الأبد أجمل صوت فى الدنيا وانتهت حياة مدهشة حافلة ، وابتدأ خلود الاسم الذى يتجدد كالربيع .

لقد غنى المغنى المجنون صوته الأخير ليذهب صاعداً محلقاً فى أجواز الفضاء إلى عنان السماء .

للمؤلف

مدرسة العبقرية

ص		
٣٠	فوشيه	السياسى الأعظم البوليسى الأعظم
٢٥	التلميذة الخالدة أو حياة مدام كورى	
٢٥	هاينى	أو حياة العذاب والإبداع
٢٥	بلزاك	أو القصصى الأعظم
٢٥	بيرون	أو دون جوان
٢٥	شللى	أو قبور فى جنة الحب
٢٥	عرش وقلب	أو حياة لويس الرابع عشر

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

للمؤلف

مدرسة الحرب والسياسة

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

للمؤلف

مدرسة المجتمع

٢٥ زوجات
٢٠ الغيرة من الماضى
٢٠ شباب الفولجا
٢٥ مديحة أو الشيطان لعبته المرأة «قصة مصرية»
٢٥ رجال ونساء جزء أول
٢٥ رجال ونساء جزء ثان
٢٠ جرائم شرقية وغربية
٢٠ الموجة العذراء
٢٠ حياة قلب
٢٥ أنا الشرق
٢٠ العاصية

ظهر حديثاً :

٢٠ شباب هذا الجيل : زواج الشباب
٢٠ « « « : كفاح الشباب
٢٠ « « « : مآسى الشباب

تقدم معها محفظتها لمن يشتريها معاً

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

